الاغتراب في شعر

" أبي همَّام " عبد اللطيف عبد الحليم

« بواعثه ودلالاته »

إعداد

دكتوره/ أسماء شوقى بسيونى شريف

مدرس الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد لله رب العالمين ، عليه نتوكل وبه نستعين ، والصلاة والسلام على رسول الله خير الخلق أجمعين ، محمد بن عبد الله ، المبعوث رحمه للعالمين وبعد :

– فإن الأدب على مر العصور انعكاس للنفس البشرية ومشاعرها المتجددة ، فهو لا يكتفي بأن يطلعنا على الرؤية الخارجية فحسب ، بل يتعمق فى العالم الداخلى للفكر والشعور .. كاشفاً عن رؤية الشاعر للمجتمع، وما يعتريه من صراعات داخلية وأهواء ونزعات ورغبات في إطار من الدوافع الفطرية والمكتسبة .

– والشعور بالاغتراب ظاهرة اجتماعية ونفسية وليس حادثة تطرأ على الإنسان ، بل ملمح أساسي في تركيبه ، ولا يمكن تجاوزها ، وقد اخترقت هذه الظاهرة مجال الإبداعات الأدبية ، لما للاغتراب من تأثير على رؤية المبدع للمجتمع وطبيعة علاقته به ، ومن ثم ظاهر هذا التأثير على الأعمال الأدبية الشعرية والنثرية شكلاً ومضموناً .

– وقد لاحظت أن المكتبة العربية ليست ثرية ببحوث أدبية تتناول ظاهرة الاغتراب فى الشعر الحديث ، فآثرت تناولها بالبحث والدراسة من خلال الإبداعات الشعرية للدكتور عبد اللطيف عبد الحليم الشاعر المعاصر ، وتلميذ العقاد ، وحفيد الشماخ كما قال عن نفسه ، ومما دفعني إلى اختيار أعماله وضوح ظاهرة الاغتراب فى شعره واستغراقها جزءاً كبير من أعماله الإبداعية .

❁❁❁

– والبحث بعنوان « الاغتراب فى شعر عبد اللطيف عبد الحليم "أبوهمام" » وقد تناولت البحث فى تمهيد وخمس مباحث على النحو التالى :

أ– نبذة عن حياة الشاعر .

ب– شعر أبى همام (موضوعاته ومضامينه) .

المبحث الأول : مفهوم الاغتراب .

المبحث الثانى : دلائل الاغتراب فى شعر عبد اللطيف عبد الحليم .

المبحث الثالث : بواعث الاغتراب فى شعره .

المبحث الرابع : مراحل الاغتراب فى حياة الشاعر وانعكاسها في شعره .

المبحث الخامس : الإحساس بالاغتراب وأثره فى التشكيل الأسلوبى .

ثم خاتمة تشتمل على نتائج البحث ومصادره ومراجعه ثم فهرساً للموضوعات .

– وقد واجهتني بعض العقبات فى هذه الدراسة ، منها ندرة الموضوع، وقلة الدراسات التى أشارت إليه ، ومن هنا فقد اعتمدت في دراستى لظاهرة الاغتراب فى شعر " أبى همام " على كثير من الجهد الذاتى، وإرشاد وتوجيه أساتذة أجلاء فى الدراسات الأدبية .

– وبعد فإننى قد بلغت قصارى جهدى فى عرض فكرته وتوضيحها .

والله من وراء القصد

عليه توكلت وإليه أنيب

د/ أسماء شوقى بسيونى شريف
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

تمهيد :

نبذة عن حياة الشاعر

تجربة الحياة والإبداع " أبو همام " :

– الحياة إبداع يتجدد ، والإبداع حياة متجددة ، وربما كان أهم اختراع بشرى هو معرفة الإنسان بسر الحروف ، التي كثيراً ما تضنُّ بكشف مخبوئها ، وحسبنا منها الأطياف والظلال ، ولعل قضية الإبداع نعرف سرها إذا عرفنا سر الحياة ، وهيهات ، نحن فقط نقبض على الظلال بالأكف، ونحسب أننا نقبض على جواهر الأشياء . (١)

– وفى محاولة للكشف عن أسرار إبداع الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم ، ومعايشة أفكاره ومواقفه ، والعوامل التى ساعدت على تكوين شخصيته ودفعته إلى عالم الشعر والتحليق فى آفاق الخيال ، نلقى الضوء على حياته وتجاربه .

– هو عبد اللطيف عبد الحليم عبدالله الشوبرى ، نسبته إلى قرية " شوبر " التى ربما هاجر منها الجد الأعلى إلى قريته فى المنوفية .

– ولد بقرية « طوخ دلكه » مركز « تلا » بمحافظة المنوفية ، فى ٢١أكتوبر ١٩٤٥م ، ونشأ في أِسرة متوسطة تعمل بالزراعة ، وكان لجده وجاهة اجتماعية وسماحة فورث منه حفيده تلك السماحة وعدم إمساك المال .

– عشق شاعرنا صوت الحرف قبل أن يعرف رسمه ، ربما فى زمن موغل فى الطفولة ، وقبل أن يذهب إلى الكتاب عشق غناء الباعة الذين كانوا يتغنون بعباراتهم الموقعة فى نداء على بضاعتهم ثم اكتشف عالم الغناء فى الموالد والأفراح ، وحفظ طرفاً من الإنشاد الديني ليؤكد هذه السليقة ، فرتل القرآن الذى حفظه فى السنة الرابعة الابتدائية فى البيت وفى المسجد ، وحفظ

(١) راجع شعراء ما بعد الديوان – د/عبد اللطيف عبد الحليم – جـ٤ ط مكتبة النهضة المصرية – ١٩٩٤م ص١٢١ : ١٢٧ .

فى " الكتاب " أيضاً بعض المتون ، وطرفاً من التحفة والأجرومية والجزرية والرحبية .

– ثم التحق بالأزهر فى مدينة شبين الكوم ، حيث عاش وحده وهو فى سن الثانية عشرة ، وهى تجربة قاسية ، ولكنها كانت مفيدة فى الاعتماد على النفس والرجولة المبكرة .

– وفى نهاية المرحلة الابتدائية (الإعدادية الآن) نزح إلى القاهرة ملتحقاً بالمعهد النموذجى للأزهر بالمرحلة الثانوية ، وفى السنة الأولى الثانوية قيض الله له رجلاً هو الأستاذ محمد خليفة التونسى – رحمة الله عليه – حيث درس له النقد والبلاغة – وقد بدأ حفظ الشعر بشواهد النحو ودواوين الشعراء ، كما بدأ قرض الشعر ، واكتشفه الأستاذ التونسى ، فذهب به إلى العقاد واستمع إليه العقاد ، فى قصيدة عن ذكريات لاجئ فلسطينى وأثنى عليه وشجعه ، وقال بلهجته العذبة أين تدرس يا مولانا ؟ فقال أدرس فى الأزهر ، فقال له ادخل دار العلوم يا مولانا . فجعل دار العلوم قبلته ، وحرص على حضور ندوات العقاد الأسبوعية ، وفى تلك المرحلة أذاع بعض شعره فى الإذاعة ، وفى بعض المجلات مراسلاً لها ، وشارك فى بعض الأمسيات الشعرية ، ثم التحق بدار العلوم ، وتتلمذ فيها لبعض من رآهم فى مجلس العقاد ، أو فى لجنة الشعر أو المجمع اللغوى ، وشارك فى ندوات الشعر التى كانت تعقد كل أسبوع ، ويعلق عليها الأساتذة ، ومنهم : على الجندى (الشاعر) ، وأحمد هيكل ، وعبد الحكيم بلبع ، والطاهر مكى ، ومحمود الربيعى ، ومحمد أبو الأنوار وغيرهم .

– وكان شاعرنا متفرغاً للشعر ، غير مجد فى الدراسة ، يلاحق الجمال حيث كان ، ويعتبره المثير الحقيقى للشعر الذى نذر نفسه له ، إلا أن إلحاحاً من أساتذته أن يجدَّ فى الدراسة بجانب الشعر ، وجهه إلى شيء من الاجتهاد فى العام الأخير ، وفى أواخره ، لكى يعين معيداً بدار العلوم ، وكان أن تحقق هذا حيث حصل على الليسانس وعين معيداً بالكلية عام ١٩٧٠م ، وتوثقت

صلته بالشاعر المرحوم " على الجندى " ، فأخذ عنه حرصه الفائق على التراث وفهمه له ، ثم عرف " محمود شاكر " وغذى فى نفسه الحدة فى الرأى التى غذاها العقاد من قبل ، والتى صادفت هوى فى نفسه .

– درس شاعرنا المازنى فى رسالة جامعية للحصول على درجة الماجستير ، وكان مشرفه على الرسالة الدكتور أحمد هيكل ، وما لبث أن سافر أستاذه إلى مدريد ، فانتقل الإشراف إلى الدكتور عبد الحكيم بلبع ، وناقش الرسالة وحصل على درجة الماجستير عام ١٩٧٤م .

– وكان بعد ذلك بعثته إلى أسبانيا – أو الأندلس – فوصل مدريد فى شتاء ١٩٧٦م ، وانكب على تحصيل اللغة الأسبانية ، صباحاً ومساءً ، وحضور محاضرات فى الجامعة ، حيث طلب منه أن يلتحق بالسنة الأولى بكلية الآداب ، والحصول على الليسانس مرة أخرى .

– واجتاز المعادلة فى جامعة مدريد المستقلة ، وسجل رسالة الماجستير فى الأدب الحديث ، واجتاز " الليسانس والماجستير " فى عامين ونصف ، ثم حصل على الدكتوراه فى الأدب المقارن سنة ١٩٨٣م ، بتقدير ممتاز عن رسالته « دراسة مقارنة بين شعر العقاد وميجيل دى أونامونو » .

– ثم عاد إلى مصر وإلى كليته « دار العلوم » ، وأخرج كل ما لديه فى التحقيق والتأليف والترجمة والإبداع الشعرة .

▪ ومن دواوينه الشعرية :

١– الخوف من المطر .
٢– هدير الصمت .
٣– مقام المنسرح .
٤– لزوميات وقصائد أخرى .
٥– أغانى العاشق الأندلسى .
٦– زهرة النار .

ب▪ شعر أبى همام (موضوعاته ومضامينه)

شعر الحب :

– إن شاعرنا أبا همام ذو حساسية مرهفة ، وقلب نابض بالحياة ، فكان لعاطفة الحب أثر فى نفسه ، فقد امتزج بها كيانه فى روحانية سامية تعلو عن المحسوسات ، فنراه يرقى بجمال محبوبته عن مجرد الشعور بالفتنة ، فجمالها موسيقى من الغيب ، وحبه طائر يحوم حول حبها ، يناجيه من أفق السماء البعيد ويناجيها فى قصيدة « موسيقى من الغيب » يقول : (١)

جمالك موسيقى من الغيب ، بشاطئه المسحور ، طيف الهوى
تحن لها روحى ، كأن لحونها تمازجها من قبل أن يُخلق الحب
فرفرف طير ، غب غيث ، قوادمه ، تحدوه فى شوقها السحب
يطالع أفقاً بعد أفق كأنما يناجيه من خلف السماء المدى الرحب
إلى الملأ الأعلى إلى حيث تلتقى سرائر روحينا وقد كشفت حجب

❁❁❁

– بل ويدفع عنها الحزن ، فهى نور لحياته ، تخرجه أحياناً من حالة الحزن والألم الذى يعتريه ، لما يحوطه من شرور الحياة وويلاتها ، فإذا حزنت تتدافع إليها كإنسان ظمآن إلى آخر مورد فى حياته ، فيقول فى قصيدته « إلى عيون حزينة » : (٢)

حزينة العينية ، لا تتركى يوغل فى العينين هذا الظمأ
أرى مياهاً وظلالاً وبوقاً وهزيماً فى الضلوع اختبأ
حزينة العينين يا فرحة البحر انتشى والموج حين اجترأ
يديك ، فارمل سراب ولا منبع فى مسراى أو ملتجأ

(١) أغانى العاشق الأندلسى – ص١٤ – د/ عبد اللطيف عبد الحليم – الهيئة العامة للكتاب – جـ١ – ٢٠٠١ ص١٧ ، ١٨ .
(٢) السابق ص١٧ ، ١٨ .

سواك ، والأمس فى تهاويله تظمئ شوقاً لاهياً ، ما هدأ
ياطفلة العينين ، يا دفقة الرى على هاوية من ظمأ
روى إلى يومى أفراحه أنت صوابى فى الزمان الخطأ

– وإذا كان حبه للمرأة هو الصواب فى الزمان الخطأ ، فقد كان فى أوقات أخرى سحابة صيف كاذبة الرؤى والسمت ، فقد يكتشف أن علاقته بها علاقة واهية كاذبة فلابد من الفراق ، فهو يشعر بفتور وغربة ويعانى عذاباً وألماً ، حتى ظن أن الحب أسطورة ليس لها وجود فى حياته ، وقد عبر عن هذه العلاقة فى قصيدته « أسئلة » : (١)

حين التقينا ، ركدت بيننا الرياح واستغرقنا الصمت
واشتجرت أسئلة لم تبح بما بها ، واختنق الصوت
تسقط لا تنشلها همة فترتمى ، يلفها بَهْت
نحن غريبان وإن جمعت أجسادنا ، فجمعنا شتَّ
سحابة الصيف وإن أمطرت تفضلها شاتية تشتو
إن قلت كان الحب أسطورة أقول : قد صادفه النعت
أوقلت : يكفينا الذى بيننا إن كذباً أو أسأما ، قلت :
اشتجرت أسئلة ، عافت الزيف ، وأدمى صدقها كبت
وانتفضت رافضة ، فى دمى عواصف واحتدم المقت

– وتتوالى تجارب الحب التى عاناها شاعرنا ، وانتفض لها قلبه ، ولكن الزيف والخداع يخترق الصورة الروحانية التى رسمها الشاعر لمحبوبته ، فهى أحياناً بسمة الشيطان وبائعة للهوى الطنين ، تخدعه بالقول الكاذب والمشاعر المجوفة :

يا بسمة الشيطان يا بائعة الهوى

(١) المصدر السابق ص٣٠ ، ٣١ .

عشاقك الكثار فى ضراوة الذئاب
لقاك هذا ضاحياً وذاك فى الضبابي
وجئت للشاعر مثل بسمة بلا شفةْ
خدعته بالقول ، بالمشاعر المجوفةْ
لوثت شعره الكريم وجرحت شرفةْ(١)

– فهذه التجارب وغيرها صدمات نفسية تعرض لها شاعرنا ن ولكن كان لها أثر لا ينكر على توجهاته ونظرته للمجتمع ، بل دفعه بعضها إلى اغتراب نفسى يتقى به شرور الخداع والكذب .

۞۞۞

٢ـ شعر الرثاء :ـ

– رثى شاعرنا كثيراً من أقرانه وأساتذته ، ممن كانت تربطه بهم علاقة وثيقة كالعقاد وعلى الجندى (الشاعر) ، والعوض الوكيل ، فكشف من خلال رثائه تفجعه وشعوره بالألم لفراقهم ، كما بث من خلال شعره فى الرثاء فلسفته فى الموت ، فهو يراه ختاماً للآلام التى يعانيها الإنسان فى هذه الحياة ، ولكنه لا يفتأ يبث حزنه العميق على فراق هؤلاء الأحبة ، باعثاً ذكراهم فى هذه الحياة التى هانت بذهابهم ، فكان فراقهم مثار إحساس عميق بالغربة فى مجتمع افتقد فيه أنيسه ورفيقه ، فما عاد يرضيه المقام ، فالحياة صفقة يخسر فيها الرابح ، والذى يرحل عنها لا يضام ، فيقول فى رثاء العوضى الوكيل :

شط بى النأى زماناً يابساً وطوى ودى به عام وعام
غير ودَّ لك ، ما زلزله غربة النفس وأشجام تؤام
يا أخى فى مذهب العقاد ، لم أرثك اليوم ، فما بى قوام

(١) زهرة النار (ديوان الخوف من المطر) ص٣٢٨ – د / عبد اللطيف عبد الحليم ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م .

بل مثانى أمة ، ضل بها الحس — واسترعى نواصيها الأثام
قيمة الفكر بها ، يا هونها — ليس يرعاها جلال واحترام
أنت عف ما أطباك مورد — بات ترعاه الأناسى والسوام
شامخ مغترب ، مستوحش — لك من روحك أنس وزحام
أيها الشاعر الراحل ، لا تبتئس — ما عاد يرضينا المقام
كلنا نبكى على أنفسنا — ما لنا غير الردى الحتم ختام
صفقة يخسر فيها رابح — والذى يرحل عنها لا يضام(١)

❀❀❀

– وقد تفقده الفاجعة قدرته على التفكير المنتظم ، فنراه يتساءل ويتعجب ويستعظم الخطب ، فيقول فى قصيدته « الموت غاية الحياة »(٢) رثاءً للشاعر للشاعر " على الجندى " :

غير اختيار تجيء رحلتنا — ثم تولى والنفس لم تطب
واعجبا بدؤنا وغايتنا — وكيف – لا كيف – ينتهى عجبى
للدود – يا للهوان– يخلق هذا — الخلق ، فى كل هذه الحقب

– فالحياة رحلة تبدأ بغير اختيار ، وتنتهى بغير اختيار ، وهى حكمة تدفع شاعرنا إلى التساؤل إلام تنتهى الحياة ؟ هل تنتهى إلى جسمان يأكله الدود ؟! وكأنه لا يصدق أن صديقه العزيز سيكون هذا مصيره ، ولكنه يعود فيسيطر على مشاعره ، وتتداعى الذكريات ، فيتذكر موعده معه فى الصباح ، وقد أخلفه ولكن بدون اختيار ، فقد كان له موعد آخر مع الموت ، هذا الرجل الذى عاش أبياً فى زمن كل من حوله لا أمل لهم إلا الحرب والثبور ، وجيرة لا يتطلعون إلى العلا ، واقتحام الصعاب ، فقد مردوا على التذاذ الهوان وانحسرت

---

(١) أغانى العاشق الأندلسى (ديوان هدير الصمت) ص٢١٠، ٢١٣ بتصرف .
(٢) زهرة النار (ديوان الخوف من المطر) ص٣١٥ .

حكمتهم فى الذل وألبسوه بسمة الأدب ، فعاش بينهم مغترباً كالرهبان ، ولكنه بين العلا وأهل الأدب ليس مغترباً :

موعدنا فى الصباح كذَّبه الموت وقد كان صادق الكذب
أيتها النائيات ، كم وهنت شكيمتى ، فالرياح تعصف بى
أبىّ ، ملَّ المقام فى زمن آماله فى الثبور والحرب
فى جيرة لا هموم تدفعهم إلى اقتحام السماء والغلب
كل مناهم فى الطين ، قد مردوا على التذاذ الهوان والحرب
وروحك قد خاصمت مواردهم وعافت النبع هين الطلب
مغترب كالرهبان ، لكنه بشامخ الفضل غير مغترب[1]

– فالشاعر من خلال رثائه تمكن من رسم صورة للمجتمع الذى يحيط بالمرثى الذى عانى فى حياته ما يعانيه كل إنسان ذى مبادئ قويمة يعيش فى مجتمع هان فيه ذووا العلم والفضل ، فاغتربوا عنه كالرهبان فى عزلة حتى وافتهم المنية ، فاغتربوا عن حياتهم الدنيا إلى حياة أخرى ، قد تكون أفضل من الحياة فى مجتمع افتقدوا معه الإحساس بالوجود الحقيقى للفضيلة والعلا .

▪ الإخوانيات :

– كتب شاعرنا عبد اللطيف عبد الحليم إلى إخوانه ممن تربطه بهم صداقة أو علاقة حميمة ، فكتب إلى أ/ **محمود شاكر** ، أ/ **العوضى الوكيل** ، وأستاذه **العقاد** ، فكتب قصيدته « إلى أبى فهر فى عيد ميلاده الثمانين » يقول:[2]

إن الثمانين – وضوعفتها– لم تحوج السمع إلى ترجمان
ولم تبدَّل بالشَّطاط انحنا ولم تُذلَّل منك صعب البيان

(١) السابق ص٣١٧ .
(٢) أغانى العاشق الأندلسى ص٣٣ .

بـل ظِلـت كالفتيـان مسـوفزاً ... كـالريح ، لا يغريـك طعـم الأمـان
حسـبك أن أرضـيت فيهـا الـذى ... ملأهـا بـالعزم والعنفـوان
حسبك أن أرضيت شوق النُّهى ... لعـالم عزبـه الأصـغران

– فالشاعر يكشف عن إعجابه بشخصية الأستاذ الكبير/ محمود شاكر ، هذا العالم الذى عرف بآرائه الجادة ، ومواقفه الحازمة ، التى كفلت لـه احترام الجميع ، فإذا ما بلغ الثمانين لم يهن هذا الصرح الشامخ ، بل ظل فتياً ذا همة سامقة ، بنفس ملؤها عزيمة وعنفوان :

حسبك أن أسخطت فيها الألى ... رامـوا هوانـاً ، لفتـى لا يهـان
إذا علـت فـى النـاس أسـماؤهم ... فكـم عـلا فـى غيـر شـيء دخـان
هـالهم أنـك فـى عزلـة ... حـج إليهـا كـل قـاص ودان
فلـم يـزل حشـدهم صـاخباً ... يـروم أن يـوهن منـك الجنـان
فعـذت بالبـأس وجردتـه ... وقلـت : كـان الحق هـذا ، فكـان
مقولـك العَضْـبُ أنـيس لمـن ... كـان لـه قلبـك يـوم الطعـان(١)

– نلاحظ أن الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم يتوجه دائماً إلى مجتمعه فى رسائله الإخوانية فهو يعمد إلى رسم صورة للشخصية التى يتحدث إليها وعلاقتها بالمجتمع ، وهذه الشخصيات غالباً ما تتفق فى المذهب الأدبى ، والتوجه الاجتماعى ، فهو يكشف عن أزمة طائفة فى المجتمع ، يشعرون بتميزهم وتفردهم ، ولكنهم لا يجدون من يتجاوب مع أفكارهم غير قلة من ذوى الفكر والرأى الحر ، فكثير منهم عاشوا فى عزلة واغتراب عن مجتمعاتهم ، ومنهم من اكتفى بالهروب النفسى فى عزلته وعاش فى عالمه المثالي الذى رسمه لنفسه ، ومنهم من عاد إلى المجتمع بثورة على أفكاره الهابطة ، وتطلعاته التى لا تسمو إلى الروحانيات ، بل تتعلق دائماً بماديات الحياة ، فالشاعر فى

(١) المصدر السابق ص٣٤ .

قصائده الإخوانية ، يبث آراءه فى المجتمع آملاً أن تكون بداية للتغيير والثورة على الأوضاع المتردية في المجتمع .

❁❁❁

ـ الوطنية والعروبة :ـ

– إن الوطن جزء لا يتجزأ من كيان الإنسان ، والوطنية نزعة عاطفية نشأت من ارتباط الإنسان بالمكان الذي نشأ فيه ، وقد ظهرت هذه النزعة كتيار أدبى عند كثير من الشعراء ، وقلما نجد شاعراً لم يكتب قصيدة يعبر من خلالها عن مشاعره تجاه وطنه ، وما يمر به من أحداث ومتغيرات .

– والشاعر (أبو همام) شديد التعلق بوطنه الأول مصر ، ووطنه الكبير الوطن العربى ، تقلقه همومه ، ويؤثر فيه ما يطرأ عليه من حوادث جسام تهز كيانه ، فنراه يعبر عن عاطفته الوطنية تجاه (مصر) فى قصيدته « مصر بين عهدين » يذكر شعبها وحضارته ومكانته بين الأمم ، وماله من تراث عظيم ومجد تليد ، وماض أصيل ، كما صور شجاعة أبنائه وبسالتهم ، إذ تجاوزوا المحنة بعد المحنة ، ثم يعود ويرثى ما آل إليه الشباب من خور واستكانة ، واستجابة للذل ، وانهزامية سرت بين أبناء الأمة ، يقول : (١)

جددى العهد ، فما العهد يضام	**وأتمِّيه ، فللحق تمام**
عيدك المنصور ، فى ريعانه	**ضافه من عالم المجد غمام**
سابق الأعوام ، واستشرفها	**كالشباب الغض يطويه احتدام**
إيه يا مصر ، وللشعر مع الزمن	**الماضى غضاب وكلام**
غله البغى ، فلا الأنة ينفثها	**قهراً ، ولا البوح يرام**
حطمى قيدك ، لا تكترثى	**عانقى صبحك قد بان الظلام**
إنه النصر ، صحت فى فجره	**سمة المصرى ، قد عادت تشام**

(١) أغانى العاشق الأندلسى (ديوان لزوميات وقصائد أخرى) ص١١٠، ١١١ .

بـــدأت خطوتـــك الأولـــى إلـــى مشـرق الفجـر وهـا يرجـى الختـام
جـــددى العهـــد إلـــى حريـــة واحرســـيها أن يعاديهـــا اللئـــام

– فالشـاعر يخاطـب شـعبه ، ويـدعوه إلـى طلـب الحريـة ، ويدفعـه إلـى التضحية والفداء فى سبيل تحقيق المجد لوطنه ، ليبعد عنه صولة اللئام .

۞۞۞

– وقد تناولتْ قصائده عديداً من القضايا منها قضية فلسطين ، كما عبر عن المجد العربـى القديم فـى بغداد والأنـدلس ، وكـان استدعاؤه للتراث العربـى القديم ، وحنينـه للماضـي من أبرز وسائله للتعبير تمسكه وحبـه لوطنـه وتراثـه ، ودعوة لتجديد هذا المجد .

– وهنـاك موضـوعات وقضـايا أخـرى تناولهـا الشـاعر فـي قصـائده تبعـاً للمواقـف والأحـداث التـى يواجههـا فـى حياتـه ، وتتـراوح بـين شـعر التأمـل ن والخواطر الذاتية ، والوصف ، والقصة الشعرية الاجتماعية والسياسية ، فدواوينـه حافلـة بـرؤاه الشـعرية التـى تعبـر عـن كيانـه الشخصـي ورؤيتـه للكـون والحيـاة والإنسان .

۞۞۞

المبحث الأول

حول مفهوم الاغتراب

إن لفظ « الاغتراب » ليس حديث التناول بمفهومه ومعناه الذي تداوله الباحثون فى مجال الأدب العربى الحديث، فالكلمة التى استخدمت منذ القدم لتعبر عن الاغتراب هي كلمة « غربة»، واشتقت كلمة الاغتراب من الكلمة اللاتينية Alienatio، وهى الأصل الذي اشتقت منه الكلمة الإنجليزية ation nalie، ونظيرتها الفرنسية aliénation الدالة على الاغتراب [١] .

وقد استخدمت هذه الكلمة فى السياق الدينى والنفسى – الاجتماعي والسياق الشعرى، وقبل أن أعرض لهذا اللفظ بالتحليل والتوضيح أود أن أبين أمرين أولها أن كلمة « الاغتراب » أو «الغربة» تعنى كما تقول معاجم اللغة العربية على اختلافها، النزوح عن الوطن أو البعد والنوى أو الانفصال عن الآخرين، وهو معنى اجتماعي بلا جدال، غير أن الذي لا جدال فيه كذلك هو أن مثل هذا الانفصال لا يمكن أن يتم دون مشاعر نفسية كالخوف أو القلق أو الحنين، تُسببه أو تصاحبه أو تنتج عنه.

أما الأمر الثاني فهو أن الإنسان العربى على الرغم من أنه كان يحيا فى كنف القبيلة، ينتمى إليها ويستعين بها. حتى أنه لم يكن يعرف إلا من خلالها، فإن ذلك لم يقف حائلاً دون ظهور ألوان من التمرد أو القلق الجماعى والفردى على حد سواء « على اختلاف دوافعه وغاياته وتباين طابعه العام » [٢]

فعلى سبيل المثال أحس شعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى بالغربة لأنهم حاولوا استعمال حرياتهم فى كل الأمور التى اصطدمت بالمجتمع فى هذا الوقت البعيد. [٣]

---

(١) الاغتراب – د/ محمود رجب ص٣١ دار المعارف ط الثانية ١٩٨٦م.
(٢) المرجع السابق ص ٤١.
(٣) النص الأدبى فى العصر الحديث بين الحداثة والتقليد – د / عبد الرحمن عبد الحميد على – ص ١٠٣ – دار الكتاب الحديث – ط ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

وإذا نظرنا إلى كلمة « اغتراب» أو «غربة» ومفهومها فى الشعر الجاهلى نجد أنها « كانت تجيء فى إطار التعبير عن تجربة حية آسية ، كابدها الشاعر القديم إلى حد التمزق، وكان قوام هذه التجربة ذلك الوعى الشقى بأن حياته إنما هى غريبة عنه كالشيء المستعار فيما يقول المهلهل بن ربيعة التغلبى:

أرى طـول الحيـاة وقـد تـولى كمـا قـد يسـلب الشـيء المعـار

ويبلغ هذا الوعى الشقى مداه عندما يدرك الإنسان أنه « موجود من أجل الموت » يقضى عمره مغترباً، حتى يجيء الموت ويضع النهاية، فيما يرى بشر بن أبى خازم الأسدى [1] :

ثـوى فـى مُلْحَـدٍ لابـد منـه كفـى بـالموت نأيـاً واغترابـا
رهـين بلـى، وكـل فتـىً سـيبلى فـأذْرِى الـدمعَ، وانتحبـي انتحابـا[2]

وحين أراد ابن عربى (١١٦٥ – ١٢٤٠) أن يعبر عن قصة آدم وهبوطه من الجنة إلى الأرض لم يجد غير كلمة غربة وفعلها « اغترب» وقد ذكر ذلك فى كتابة الفتوحات المكية قائلاً : « إن أول غربة اغتربناها وجوداً حسياً عن وطننا غربتنا عن وطن القبضة عند الإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون الأمهات فكانت الأرحام وطننا، فاغتربنا عنها بالولادة»

هكذا عرف العرب الأقدمون مفهوم الاغتراب... عرفوا الاغتراب المادي « المكاني» والحسى... عرفوا الاغتراب بكل أنواعه. فقد فهموه على أنه الارتحال عن الوطن، والبعد والهجر، والانفصال عن الآخرين، غير أن هذا الانفصال لا يتم دون توافر أبعاد هذا الانفصال، ومؤثراته على المستوى

(١) ديوان بشر بن أبى خازم– ص ٣١– تحقيق د/ عزة حسن – ط دمشق ١٩٦٠م.
(٢) الاغتراب – د/ محمود رجب – ص ٤٢.

الداخلى أو على المستوى الخارجى كالكبت أو الخوف أو القلق أو العجز عن إتمام غاية [١].

وتصل الذروة فى فهم الاغتراب على مختلف مناحيه عند العلامة العربى الأديب أبى حيان التوحيدى الذي يقول : فأين أنت من غريب قد طالت غربته فى وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه ؟ وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان، بل المحنة ..إن حضر كان غائباً وإن غاب كان حاضراً » [٢]

« فلو حللنا هذه المقولة بحثاً عن أنواع المفاهيم الاغترابية فيها لوجدناه على كافة مناحيه . فالفقرة الأولى من المقولة : « أين أنت من غريب قد طالت غربته فى وطنه، مؤداها الدلالى، الاغتراب المادى الاجتماعى النفسى السياسى، فلو لم يكن هناك شعور بالكبت، بالحرمان، بفساد الواقع والمجتمع، لما كان هذا الشعور، وفى فقرة أخرى « وأين أنت من غريب لا سبيل له إلى الأوطان، ذلك مفهوم آخر للاغتراب الذى مؤداه الاغتراب فى الارتحال عن الوطن مصحوباً بدوافع إما نفسية اجتماعية، وإما بدوافع سياسية. [٣]

ويصل اكتمال المعنى والمفهوم لهذا الاغتراب عند التوحيدى فى قوله : « أغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه، وأبعد البعداء من كان قريباً فى محل قربه ؛ لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود، ويغمض عن المشهود ، ويقصى عن المعهود... الغريب من إذا ذكر الحق هجر، وإذا دعا إلى الحق

(١) الاغتراب فى الدراما المصرية المعاصرة (بين النظرية والتطبيق) – ص٩ حسن سعد السيد – الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٨٦م

(٢) الإرشادات الإلهية أبو حيان التوحيدى – ص ٧٩ – تحقيق د/ عبد الرحمن بدوى.

(٣) الاغتراب فى الدراما المصرية المعاصرة – حسن سعد السيد – ص ١٠.

زجر... يا رحمتا للغريب ! طال سفره من غير قدوم، وطال بلاؤه من غير ذنب... وعظم عناؤه من غير جدوى... الغريب من إذا قال لم يسمعوا له، وإن رأوه لم يدورا حوله... الغريب من إذا أقبل لم يوسع له، وإذا أعرض لم يسأل عنه. الغريب فى الجملة كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغذاؤه حزن وعشاؤه شجن، وخوفه وطن » (١)

ولعل المقولة السابقة « تحدد المفهوم الدلالى الصحيح للاغتراب، فليس مهماً أن يكون الإنسان غريباً على المستوى المادى فى بعده أو ترحاله بعيداً عن الوطن. صحيح قد يكون منفياً بدوافع سياسية، ولكنه فى نفس الوقت قد يكون السبب فى بعده وترحاله عن وطنه للسفر والتنزه، أو للعلاج، أو للسياحة، إلى آخر هذه الأسباب السطحية المفهوم والدلالة حيث تكون الغربة هنا غربة على مستواها المادى، خالية الفحوى والمضمون الاغترابى الصحيح، لذلك وصلت الذروة الدلالية عند التوحيدى فى قوله « أغرب الغرباء من صار غريباً فى وطنه » فأغرب الغرباء الذين يداهمهم الاغتراب على المستويين الحسى والفعلى هم المغتربون فى أوطانهم، فلو تأملنا « فى أوطانهم » لوجدنا دقة فى التعبير وفى الدلالة، فلو قال عن أوطانهم لاختلفت الدلالة تماماً « فمن » تفيد البعد أما « فى فتفيد القرب الشديد » (٢)

وهنا أود أن أشير إلى أن الشعور بالاغتراب بداية غريزة فى الإنسان خلق بها، ويتطور هذا المفهوم بتطور الحياة واندماج الإنسان فيها وشعوره بالانفرادية والتميز، وقد بدأ هذا الشعور يعترى الإنسان ويظهر بوضوح عند انتقال الإنسان من وطنه إلى بلد غريب بعيد عن وطنه فى عاداته وتقاليده،

(١) الإرشادات الإلهية – أبو حيان التوصيدى – ص ٨٠، ٨١.
(٢) الاغتراب فى الدراما المصرية المعاصرة – حسن سعد السيد – ص ١٠.

وطبيعة البشر فيه مختلفة عن طبائعه التى نشأ بينها وترعرع، وتكونت أفكاره ونمت مشاعره.

« ولا يخفى أن الانتقال طواعية أو كرها إلى أرض أخرى يغدو فيها المرء غريب الوجه واليد واللسان على حد قول المتنبى :

ولكـــنَّ الفتـــى العربـــى فيهـــا غريـــب الوجـــه واليـــد واللســـان

والإقامة فى هذه الأرض نائياً عن موطنه، محروماً من أحبته ومسرى روحه ومسرح طفولته وصباه، يشبه فى كثير من الأحيان اقتلاع الجذور من تربتها، فيما يصيب المغترب من أمراض ليس أهونها مرض الحنين إلى الوطن » [1]

وقد أثبتت الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة أن الاغتراب قد تجاوز هذا المعنى الدلالى بعدة مراحل نتيجة لغياب الإيديولوجيات وعدم توافر الرموز والمبادئ الأساسية.

ولذلك عبر « جرودزن» – وهو أحد مفكرى الغرب – عن الاغتراب بأنه « الحالة التى لا يشعر فيها الأفراد بالانتماء إلى المجتمع أو الأمة، حيث العلاقات الشخصية غير ثابتة وغير مرضية »، فقد كان الفرد فى الماضى يرى نفسه عضواً فى عائلة أو جماعة أو حزب أو طائفة، أما الآن فيرى نفسه مستقلاً ومنفصلاً، فالإنسان الحديث محوط بالآخرين، ولكنه وحيد بينهم لأن صلته بهم واهية وسطحية ورسمية واحتكاكه بهم تصادمى، وكونه قريباً من الآخرين وبعيداً عنهم فى الوقت ذاته، يزيد من شعوره بالوحدة، فالمسافات النفسية والاجتماعية متباعدة، برغم انعدام المسافات الجغرافية. وكون الإنسان وحيداً معزولاً يسهل تغييره وتهديمه.

---

(١) سمات الحداثة فى الشعر العربى المعاصر – د/ حسن فتح الباب – ص ٤٦٣بتصرف.

- وإذا تطلعنا إلى مفهوم الاغتراب عند بعض الأدباء، نجده عند الأديب "حليم بركات "عملية صيرورية تتكون من ثلاث مراحل :

الأولي : تبدأ على الصعيد المجتمعى وبنياته الاجتماعية – السياسية الاقتصادية، ووضع الإنسان العاجز فيها، ومدى تمكن القيم والمعايير من السيطرة على السلوك.

الثانية : هى مرحلة الاغتراب الحق بوصفه تجربة نفسية شعورية عند الفرد... تتصف بعدم الرضى عن الأوضاع القائمة، ورفض الاتجاهات والقيم والأسس السائدة.

الثالثة : وهى النتائج السلوكية الفعلية، وهذه النتائج السلوكية يمكن أن تكون واحدة من الآتى :

- الانسحاب من المجتمع
- الرضوخ له ظاهراً والنفور ضمناً
- التمرد والثورة عليه [1]
- ومن هنا يتبين أن الاغتراب له مؤشرات ودلالات ومراحل ونتائج ولا يصل الأديب إلى مرحلة الاغتراب الحسي طفرة ، بل يتدرج حتى يصل إلى معايشة أو بعبارة أدق معاناة الاغتراب بكل تداعياته وأبعاده .
- ومن خلال دراستي هذه المتواضعة لشعر أبى همام ، سألقي الضوء على تلك الظاهرة البارزة في نتاجه الشعري وأبدأ بالحديث عن البواعث التى عمقت لديه الشعور بالاغتراب داخل مجتمعه وخارجه.

❁❁❁

(١) مجلة فصول – (مجلة النقد الأدبى) عدد ديسمبر ١٩٨٣م ص ٢٠٨ بتصرف.

المبحث الثانى

بواعث الاغتراب فى شعر أبى همام

إن الشعور بالاغتراب « ليس حادثة تعرض للذات أو تطرأ عليها ثم يمكن تجاوزها، بل هي ملمح أساسى فى تركيبه [١]، ولكن يتفاوت البشر فى درجة الإحساس بالاغتراب، وانعكاس هذا الشعور على حياتهم وإبداعاتهم، هذا بالإضافة إلى المؤشرات الخارجية من أحداث ومواقف تعترى حياة الإنسان، فتدفعه أحياناً إلى مزيد من الاغتراب والتوحد، ومن هنا يتراءى لنا مؤشرات ودوافع داخلية ، ومؤشرات ودوافع خارجية تمثل دعامات للاغتراب، وبؤرة انفعال تساعد على تشكيل النفس الإنسانية.

أولاً : **المؤثرات الداخلية** :

إن شاعرنا « عبد اللطيف عبد الحليم » شاعر رومانتيكى ذو حساسية مرهفة، شديد التأثر بما حوله، فهو لا يحتمل الانفصال عن المنبت أو الاغتراب بعيداً عن الجذور، ولا يحتمل نسيان البداية مهما يطل به الطريق، ولا يطيق الانفصال عن مصدره الأول، ولا يحتمل الاغتراب بعيداً عن منبته طويلاً إلا إذا وجد فى المقام الجديد أوجه شبه تدنو به إلى المنبت القديم. [٢]

ولذلك كان أو شعور له بالغربة فى سن مبكرة، حيث انتقل من قريته إلى المدينة فى سن الثانية عشرة وعاش وحيداً بعيداً عن الأهل، ثم انطلق إلى مدن شتى فى مصر ثم خارج مصر بعد ذلك، ولكنه لم ينس قريته ، فهذا اغتراب ماديّ ، ولكنه مدعم بداوفع اغتراب حسى من خوف وقلق وحنين إلى

(١) من أزاهير الرياض (أحاديث من الأدب والنقد) د/ السيد إبراهيم – ص ١٤٧ – ط ١٤٢٤هـ.

(٢) شعراء ما بعد الديوان – د/ عبد اللطيف عبد الحليم – مقال بقلم د/ ممد فايد هيكل – ص ٢٨٩.

قريته، حيث أن كيان الشاعر مرتبط بقريته وحياته الريفية التى افتقدها ولكنه ظل يحمل قلب القرية بين جوانحه، يعيشه بشعوره وإحساسه فلا يوجد فى المدينة سوى الجسد، فعاش منفصلاً عن هذا المجتمع الجديد لا يجد نفسه ومبادئه وقيمة فيه، فافتقد المعايشة الحقيقة، فعاش مغترباً عن حياته الجديدة :

لكننــــى أحمــــل قلــــب قريتــــى الأليــــف
يشــــــدنى برعشـــــه، لظلهــــا الوريـــــف

وإننـــــى مازلــــت فـــــى مــــدينتى وحيــــد
وأحمــــل الــــدعاء والســــلام والوعــــود(١)

وعندما ذهب إلى عمان، لم يحتمل الاغتراب فى بلد عربى، ليس لأنه بعيد عنى وطنه فقط، ولكنه شعر كذلك بافتقاد المبدأ والهدف من الحياة، فكتب قصيدته الساخنة « مرتبة أستاذ معار » يشتاق فيها إلى طين النيل وإلى مياهه المرسلة التى يود أن ترطب صحراء الحلوق الصدئة.

وفى أسبانيا « راح يبحث عن المنبت عن التراث الثقافى الذى عشقه فى كتب الأدب والتاريخ . وظن أنه سيلاقى غصن الأندلس الرطيب « حياً مورقاً» لقد خدعته ذكريات المجد، وتمثلت فى مخيلته ظلال العهد السعيد، وكأنما كان يتوقع أن يوفق إلى أن يرى الماضى نفسه فى الحاضر، أو لعله حسب أن ماضى الأندلس العظيم « كالعقاد» الذى تلمسه فيمن عرف بعده من أساتذة فقاسهم إليه، وأحبهم لحبه الأندلس، فهو يحاول أن يرى فى أسبانيا الحاضرة صورة الأندلس القديمة، ليحبها كما أحب تلك القديمة، ولكنه لم يجد فى هذه المرة تشابهاً كالذى وجد فى الأساتذة الذين قاسهم إلى « العقاد »، وإنما وجد غربة، وواجه « ريحاً لافحة » لم يستطع أن يوفِّق بينها وبين « نفخ الطيب»

---

(١) زهرة النار – (ديوان الخوف من المطهر) ص ٢٨٢، ٢٨٣.

ومن هنا كانت الفجوة النفسية التى لم يقو على اجتيازها، وبسببها أرقت « حساسيته المرهفة » (١)

ومن المؤثرات الداخلية : تطلعه إلى عالم مثاليٍّ خالٍ من الخور والضعف والخداع والنفاق، فعانى صراعاً بين الواقع وما هو فى عالم المثال، أى بين الواقع المادى الملموس وبين العالم السامى الروحى، وإذا مر الإنسان بهذه المرحلة يجد نفسه منقسماً أو منفصلاً متنحياً إما للواقع وإما للمثال، وفى الحالتين هو « الإنسان » منفصلاً مغترباً... (٢)

ولقد سعى شاعرنا إلى نشدان البراءة فى عالم المثال، متنحياً عن واقعه المليء بالشرور والفساد وتعقد المذاهب، وقد حاول لاحقاً الثورة على عالمه الواقعى ومحاولة تغيير ليشابه المثال ويجنى حريته الحقيقية، وكلما شعر بالهزيمة يعود للتنحى لشعوره بحالة الإحباط والقلق من واقعه المعاصر وعدم قدرته على تقبله كما هو فى الحقيقة.

المؤثرات الخارجية :

لا شك أن الإنسان يمر فى حياته بكثير من المواقف والأحداث والظروف التى تؤثر فى توجهاته النفسية والاجتماعية، وقد مر شاعرنا « عبد اللطيف عبد الحليم » بكثير من التجارب الوجدانية، والمواقف المحتدمة التى عمقت شعوره بالاغتراب، ولا ريب « أن المجتمع بظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتهم الأول لإحداث هذا الاغتراب، بما فيه من أزمات، ومتناقضات وعبث الأشياء اللامعقولة واللامنطقية، مما يحدث شرخاً داخل الإنسان، ومما يحدث بدوره ما اصطلح على تسميته بالإحباط والنزعة

(١) شعراء ما بعد الديوان – د/ عبد اللطيف عبد الحليم – مقال بقلم د/ محمد فايد هيكل ص ٩٠.

(٢) الاغتراب فى الدراما المصرية المعاصرة – حسن سعد السيد – ص ٢٥ بتصرف.

إلى الانفرادية والتوحد [١] ومن هنا تعددت المؤثرات الخارجية، والتى دفعت شاعرنا إلى الاغتراب ومنها :

١ـ التجارب الوجدانية :

مر شاعرنا ببعض التجارب الوجدانية التى ظهر تأثيرها الواضح فى أعماله الإبداعية، ولكن التكوين النفسى للشاعر بالإضافة إلى المؤثرات الاجتماعية دفعت بشاعرنا إلى صراع داخلى بين ميله إلى الحب وبين خوفه من مجهول ينتظره من خلال هذه التجربة.

وقد ظهر هذا واضحاً فى تجاربه الأولى، بعد خروجه من قريته إلى المدينة الصاخبة محملاً بدعوات وتحذيرات وما شابه ذلك، فيلتقى بفتاة المدينة، تدفعه مشاعره إلى حبها، ولكن حاجزاً يقف بينه وبينها هو شعوره بالاغتراب فى مكانه الجديد (المدنية) فيعتريه خوف من كل شئ جديد فيها، ولو كان الفتاة التى يميل إليها، فقد تلاشت عاطفة الحب أمام الخوف من الإقدام على أى شيء جديد، فتراجع فى مراحله الأولى، وهاجم كل من تحاول الاقتراب منه، ولكن سلطان العاطفة يطغى عليه، ويحجمه الخوف لحظات كثيرة، فيعترف لنفسه بالحب، ولكنه يعترف بالخوف من خوض هذه التجربة الوجدانية، وتظل الأوهام والخوف يتقاذفانه بين الحين والآخر.

٢ـ عوامل اجتماعية :

مر شاعرنا بكثير من المحن والظروف والأحداث التى دفعت به إلى عالم الاغتراب وعمقت دلالاته مع مرور الزمن، فقد تعرض لظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية كان لها أثر لا ينكر على توجهاته فى الحياة.

(١) الاغتراب فى الدراما المصرية – حسن سعد السيد – ص ١١ – ط ١٩٨٦م.

فقد واجه فى مجتمع المدينة زيفاً ونفاقاً وخداعاً لم تقبله نفسه الصادقة المتوثبة، فالخداع يحيط به من كل مكان، وتتقاذفه أمواج الخسة والدناءة، وكيف ينجو منها وهو فى بحر متلاطم من ظلمات الأنانية، وحب الذات، وهو كأهل الريف محمل بالفطرة الصادقة، فهو يستشعر الخير أحياناً فى بعض البشر، ولكن تفاجئه الحياة بما لا تشتهى نفسه، ها هو ذا يتحدث عن شخص خدعه بعد وثوقه به من خلال قصيدة « خسة » فيقول [(١)] :

خدعتنى ابتسامة منك والبسمة ... ضـــوء بـــه يغـــرُّ الكـــريم
حاســـباً أنهـــا شـــهامة حـــر ... طبعـه فـى الرجـال طبـع قـويم
عـارف معـدن الرجـال، وفـى ... النـاس شكول، يحـار فيهـا العليم
فـإذا بابتسـامتك اليـوم ألقاهـا ... طـلاءً، والضـوء فيـه سـقيم
وإذا خســة يفــوح أذاهــا ... هــى طبــع – لا تتقيــه – لئـيم

فهذه التجربة التى مر بها شاعرنا، وغيرها من تجارب الحياة فى مجتمعه دفعته إلى صراع نفسى داخلى بين الواقع التى يعيش فيه، وما يفوح به مناخه من رائحة الخسة والخديعة والابتسامات الزائفة وبين العالم المثالى الذى ينشد فيه البراءة والطهر والنقاء، فعمقت هذه التجارب التى عايشها فى مجتمعه إلى تعميق اغترابه، وانعزاله عن مثل هذه الفئات.

وتمر به أزمات وصعوبات أخرى فى الحياة، منها ترشيح الجامعة له للبعثة ترشيحاً احتياطياً، رغم أنه المستحق، إلا أن الدكتور كمال بشر عميد الكلية آنذاك لوح باستقالته – فى رجولة ونبل إذا لم يحصل على حقه فى البعثة » [(٢)]

---

(١) ديوان أغانى العاشق الأندلسى – ص ١١٦.
(٢) شعراء ما بعد الديوان – ح٤ – ص ١٢٨.

وإذا كان شاعرنا قد صرح بهذا الموقف فى شعره، إلا أنه ذكره فى سرد أحداث حياته، وقد ظهر شعوره بظلم مجتمعه فى أكثر من موضع فى دواوينه، وقد يظل يشعر بالظلم الواقع عليه، ولازمه هذا الشعور فترة من الزمن، دعم هذا الشعور تقديم بعض الشعراء أو مدعى الشعر ممن كانوا أبواقاً للنفاق والخديعة، وقد لوح بذلك حيث يقول فى قصيدته « أغنية للنار»:

أن تعلـــو الإمَّعـــات فينـــا ... ويحتـــوى الماجـــد السُّـــفول
وأن يقـــول القـــريض قـــوم ... تنكـــره فـــاعلن فعـــول
أن يغـــدو النقـــد فـــى أنـــاس ... لـــيس لـــه عنـــدهم أصـــول
أن تســـحب الشـــهرة العَـــوارُ ... النقـــاد، حيـــث الهـــوى يميـــل
أن يزمـــر الزامـــرون فينـــا ... وأن تزيـــد الصـــدى طُبـــول

وساءته بعض الصحف التى كانت ترمى القول جزافاً، دون تمعن وتفكر ؛ لمجرد الاعتراض فقط، فقد تلاشى الفكر الحر، واعتلى الجهلاء صهوة المجتمع ... وقد عبر شاعرنا عن ذلك بقوله [1] :

أن يأســـن النقـــد بـــالكلام ... الرديـــد، أن يقـــبح الجميـــل
أن يحكـــم الكـــابتين أمـــنٌ ... عـــاش بـــه قيـــده الثقيـــل
وأن يصـــيب الرمـــاةُ قـــولاً ... ســـاءهم وقعـــه الجليـــل
أن تغـــدو الصـــحف رأى فـــرد ... ويملـــى الحكمـــة الجهـــول
وأن يـــرى الاعتـــراض قـــولاً ... يهـــذى بمعنـــاه مـــن يقـــول
وأن يســـرى القيـــد فـــى لســـان ... أن يتغشـــى الســـنا أفـــول
أن يســـكت الشـــاعر الصـــدوق ... المقـــال، أن تفصـــح الفســـول

(١) ديوان أغانى العاشق الأندلسى – ص ٤٥.

فشاعرنا فى هذه القصيدة يصطدم بمرارة الواقع، فالفساد قد اعترى مجتمعه، والشعور بالظلم أصبح سحابة قاتمة تمزق أبصارهم، والسطحية والتناحر وكمّ الأفواه غدت من دعامات هذا المجتمع، فافتقد شاعرنا حريته، كما افتقده غيره وألجمت أفواه لأنها تقول الحقيقة، بينما انطلق أفراد آخرون لا يمتلكون سوى الزيف والخداع ليشيعوا ترهات وأقوالاً مزيفة، فماذا يكون إحساس الشاعر الصدوق فى هذا المجتمع ؟

إنه يشعر بالاغتراب عن المجتمع بوضعه المزيف، ويستسلم إلى صراعه، المؤلم مع نفسه لما صار إليه حال ذوى الفكر والرأى من تردٍّ ومهانة، ولسان حالهم يشتكى والأسى يعلو نبضات الحروف، ولكن القول لا يجدى، ولذلك يصرح شاعرنا بشكواه وغربته فى هذا المجتمع فيقول[1] :

أن يشـــتكى غربـــة جليـــل وحاضـــن أنســـه هزيـــل
أن يحمـــق الأريحـــى منَّـــا ويحصـــف المـــائن الختـــول
أن تلفـــظ الأرض مـــن بنيهـــا طائفـــة ليلهـــا طويـــل
تـــدفعها غربـــة لأخـــرى يطرحهـــا شـــاطئ ونيـــل

وهكذا صور لنا الشاعر محنته فى مجتمعه، والتى قاساها فترة من الزمن، نتيجة سيطرة ذوى الأقلام المزيفة على الصحف فأطفأوا جذوة الأمل، واخمدوا الشعور بالتفاؤل، ودفعوا الأدباء إلى اغتراب داخل مجتمعهم ووطنهم !! .

وقد مرت بشاعرنافضلا عن تلك الأوضاع المجتمعية الكاربة بعض الأحداث السياسية التى أثرت فيه، كما أثرت فى غيره من الأدباء، منها نكسة يونيو ١٩٦٧م، وقد صورها من خلال قصيدته « موت سقراط» حيث صور

---

(١) السابق ص ٤٦.

من خلالها بلا تكلف مأساة شعب يرضى بالذل والصمت رغبة فى السلامة يقول [1] :

فـى سـنى التيـه، ولا موسـى ولا طيـف عصـاه
بـين صـحراء، ولا مـاء، ولا عـين قطـاه
وضـياع أزرق النـاب، يبـاب قـدماه
كلنـا مـوتى، وإن عشـنا، وأغـرى الـنفس عجـز
نشـرب الصـمت دهاقـاً، ثـم لا يسـمع ركـز
نشـرب الصـمت، فـلا موتـاً لقينـا أو خلـود

فقد أصبح الشعب مستسلماً للصمت، مستدعياً السكينة، يحيط به ذل الهزيمة، التى دفعت شاعرنا إلى حياة أشبه بالموت، فهو يشعر بالكبت والإحباط ولا يرى نجاة منه، صامت وكلماته تفوح بصرخة مدوية لا تسمعها إلا نفسه، فكان الانسحاب فى نظره هو الهزيمة نفسها، فقد افتقد بها حريته، وافتقاد الحرية أول دوافع الاغتراب، افتقد حريته داخل وطنه، افتقد حريته عندما شعر بالعجز الإنسانى الذى جعله واقفاً فى صمت أما واقع سياسى لا يستطيع دفعه، وقد دفعه ذلك إلى التاريخ ليبحث عن ملجأ فتمنى « عصا موسى» ولكن زمن المعجزات قد ولى، ولم تبق إلا الحقيقة المؤلمة، وهى الصمت الذي أحاط به والعجز الذي أصاب الشعب.

وإذا كانت الأحداث والظروف الاجتماعية والسياسية والفكرية قد دفعت شاعرنا إلى الاغتراب، فهناك من العوامل الاقتصادية ما دفعه إلى ما يسمى بالاغتراب الاقتصادى، حيث ينشأ الإحساس بالاغتراب الاقتصادى نتيجة الظروف والمشكلات الاقتصادية، ومع تعاقب الأنظمة المتضاربة، وفى ظل

(١) ديوان زهرة النار – ص ١٢٤.

هذه الأنظمة المتضاربة والأفكار المختلفة فى الأداء، يحار الفرد فى مجتمع ما تلبيه حاجاته الملحة، وتكمن العلاقة الاغترابية هنا بين العامل وعمله، مما يداخل الفرد الإحساس بالحيرة والقلق المؤديين إلى الانفصال، ومن ثمة الاغتراب الاقتصادي » (١)

وقد عبر عن هذا الاغتراب فى قصيدته « مرثية أستاذ معار» التى « تصور محنة المثقفين المصريين، الذين لا يستطيعون الحياة فى مصر، ولا يستطيعون الحياة خارجها، فأثر كثير منهم ما دخل اللغة العربية الحديثة : الإعارة » (٢) ليصور شاعرنا صورة جديدة للاغتراب، وفقدانه لحريته تحت سلطان المادة « الدينار والدرهم » فيصبح كآلة فى زمن يدور حول شهوة المال ويصبح الإنسان فى « بلاد الغربة » كما نطلق عليها، منافقاً لنفسه وذويه... ولذلك فإنه يموت كل لحظة، ولكن صوتاً عاتياً يخرج من نفسه يقول « قاتلنا مخرجنا »، وهاهو يدمن النظر إلى الرمل، وكأن الحياة قد خلت من كل شئ دونها :

أدمنــت لــون الرمــل دون ســائر الألــوان
أدمنــت لــون النقــد، تعشــو نحــوه العيفــان

يصـحبنى الصـباح نحـو مكتبـى فـى الجامعـة
اســتقبل الصــحاب، بابتســامة مخادعــة

(١) الاغتراب فى الدراما المصرية – حسن سعد السيد – ص ٢١.
(٢) شعراء ما بعد الديوان – د/ عبد اللطيف عبد الحليم مقال بقلم د/ الطاهر مكى ص ٢٣٩.

نلتقـــى فـــى ليلـــة جامـــدة النســـيم
جماعـــة، ألســـنتهم تعتلـــك الهشـــيم

العـرق المهـين فـى الحيـاة ينبـرى، يقـول
ما تستحى الألسن أن تومن إليه فى فضول

نســـوغ الـــذل بصـــبر عـــاجز مهـــين
نمتضـــع الهـــواء، دون أن نعـــى، نبـــين (١)

ولكن شاعرنا بنفسه المرهفه، وشعوره القاسى بفقدان ذاته وحريته لم يقم طويلاً فى بلاد الغربة، فقد عاد بعد عامين، عادت نفسه التى تشتاق دائماً إلى أصولها وجذورها، حين شعرت بالحنين إلى مياه النيل.

❁❁❁

(١)أغانى العاشق الأندلسى – ص ٢٧، ٢٨.

المبحث الثالث

دلائل الاغتراب فى شعر أبي همام

١ـ دلالية العزلة : **Isoltion**

إن هذا المعنى يتجسد نتيجة لوعي الفرد بوجود الآخرين، فنظرة الفرد للآخرين بحسبانهم شيئا مستقلا عن نفسه، بصرف النظر عن طبيعة العلاقات التى تربطه بهم قد اعتبرت من قبل بعض الباحثين من أهم مؤشرات الاغتراب، وتشير البحوث الجارية على هذا المنوال، إلى أن هذه الوضعية غالباً ما تكون مصحوبة بالشعور بالوحدة والعزلة بدلاً من التوتر والإحباط [١]

وتأتى هذه الدلالية نتيجة عدم الاندماج النفسى والفكرى فى المجتمع، كأن يجد الإنسان نفسه وسط أناس لا يواكبونه فكرياً، مما يداخله الإحساس بالتباعد بين فكره وبين أفكارهم على هذا المستوى الفردى، أما على المستوى الاجتماعي فنجد الهوة قد اتسعت بين الفرد والمجتمع، حيث نلمح اغتراب العزلة بين الفرد وبين مجتمعه فينزوى بعيداً تحت الظل، ويتحكم فى هذه الدلالية الكامنة فى اغتراب العزلة فلسفة الواقع العصرى الذى يعيشه هذا الفرد المغترب من ثقافة مشوهة، وتضليل السياسة، وتضارب الآراء والأفكار، مما يدخل فى نفس الفرد حالة من التوتر والضياع وسط تضارب المفاهيم التى داهمته نتيجة للخلل المدفون فى الواقع » [٢]

لهذا نجد شاعرنا أبا همام يشعر بهذه العزلة الاغترابية، وقد حاول مراراً الفكاك منها ولكنه يصطدم بالواقع المتمثل فى المجتمع وظروفه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى لا تتفق مع مبادئ الشاعر وروحية الشاعرية

---

(١) الرؤيا الإبداعية فى شعر صلاح عبد الصبور – أ/ محمد الفارس – ص ٣٧.
(٢) الاغتراب فى الدراما المصرية – حسن سعد السيد – ص ١٣.

الراقية، فيندفع إلى المواجهة أحياناً، ولكنه يعود مرة أخرى إلى شعوره بالغربة داخل وطنه ومجتمعه، ويتطرق إلى التاريخ والتراث يبحث عن نماذج مماثلة له فيجد المتنلى وأبا حيان وابن حزم وغيرهم فيرتدى القناع التاريخى، وتندمج الذوات ويستشعر التماثل النفسى والزمنى.

من ذلك ما نراه فى قصيدته زهرة النار « التى يتحدث فيها إلى نفسه المتوثبة المشتعلة كالنار، فهى تريد الانطلاق، ومقاومة الواقع بما فيه من نفاق وخمول، وهو يتحدث إليها بحسبانها كائناً منفصلاً عن ذاته، ويطلب من نفسه العزلة والابتعاد عن المجتمع والاكتفاء بالأحلام والأوهام، ولننظر إلى هذا الحوار الجرئ الذى شيه الحوار الدرامى فى توثره ودفعه الصراع النفسى إلى الذروة، فتكسب كلما نغمات الصوت الدرامى ويتجاوب القارئ مع انفعال الشاعر، ويستشعر قسوة المعاناة، ها هو ذا يحاور نفسه فى قصيدته زهرة النار فيقول [(١)] :

عــودى إلــى الغربــة والمنفــى	**وعـــانقى الأوهـــام والخوفـــا**
تشــاءبى، تخثــرى فــى دمــى	**غيــر بقايـــا وردهـــا يخفـــى**
أخنقهـــا تخنقنـــي، أتقـــى	**ســـفينة تـــاه بهـــا المرفـــا**
أهــرب منــى أيــن لــى مهــرب؟	**لســت ألاقـــى أيـــن أوكيفـــا**
تلــك بقايـــاك التـــى لاتنـــي	**يزيـــدها البعـــد بنـــا لهفـــا**

إلام ينتهى صراع الشاعر مع نفسه ؟ هل تفوز نفسه المتوثبة المتقدة، هل يتقبل الحياة كما هى تتقاذفه أمواجها، أم يظل فى متاهة لا يجد شاطئاً يرسو إليه؟! . ولكن شاعرنا بعد صراع امتد طوال القصيدة تعلو وتهبط نغماته

(١) ديوان زهرة النار – ص٥.

مع درجات الانفعال والصراع إلى أن يرسم حياته بطريقته التي اختارها لنفسه، ودفعه إليها مجتمعه فيقول [١] :

يا شاطئاً، ضل شراعى به — عانق به الأوهام والخوفا
وأنَّة نازفة فى دمى — لا ترتجى البرء ولا تشفى
ويا دموع الكبرياء ارقئي — فإننى أخشى لك النزفا
فإننى ماضٍ إلى وحدة — مأنوسة، لا تشتكى المنفى

ولكن هذه الوحدة المأنوسة لم يتجه إليها شاعرنا عبثاً، فالأجواء المحيطة به دفعته إليها على الرغم من محاولته الدفاع عن كيانه فى هذا المجتمع، ومحاولته تصحيح كثير من الأمور، منها :

تقبل المجتمع لكثير من الأشعار الهابطة التى لا ترتقى إلى المستوى الأدبى المطلوب، بل أصبح المجتمع يحتفل بها ويشجعها، ومن هنا نرى الشاعر يظهر تعجبه وحيرته مما يحدث فيقول في قصيدة القوس [٢] :

ما لنا صاحبى قد انتشرت — منا الأواخي وأكثر العَذَلَهْ
وبيع قوس الشماخ، وانفرد — الأغتم يهذى، وأفصح الفسله
وأصبح الصدر حامزاً، ركضت — به سوافى الهموم، منهمله
وشاه وجه الأقواس، يطلبها — كلُّ دعيّ، وعاجز تكله
وبات وجه الخذلان ينشر فى — نفوسنا – دون خشية – علله

وتكشف هذه الأبيات بوضوح معاناة الشاعر، وتلبس نفسه بالهموم، فقد هوت أمام ناظريه قصور الأشعار، فأصبح الشعر سلماً، ولم يجد من يضع

(١) زهرة النار – ص ٨.
(٢) زهرة النار – ص ١٣، ١٤.

حداً لمهازله، حين أصبح أدعياء الشعر الذين كنى عنهم الشاعر بقوله « الفسلة » هم الفصحاء والبلغاء فى نظر المجتمع، وانزوى ذووا البيان والفصاحة.

فكانت عزلة الشاعر واغترابه هى أولى خطواته للرؤية الصحيحة للمجتمع، فنراه يصوره بنظرة ثاقبة بعيدة عن ضغوط الحياة وويلاتها، ولعل هذا هو المعنى الايجابي للاغتراب، حيث يصل المبدع إلى هذه المرحلة بعد فترة ينعزل فيها إلى نفسه فيعيها ويعرفها حق المعرفة، ثم يتجه إلى المجتمع بروح ثابتة متجددة، وبذات فاعلة لديها قدرة على التغيير وإثبات الوجود، ولننظر إلى أبى تمام الذى التفت إلى هذا المعنى الإيجابى للاغتراب حين قال:

وطـول مقـام المـرء فـى الحـى لديباجتـــه، فـــاغترب تتجــدد [1]

وقد كان الاغتراب عند هيجل الفيلسوف هو (الوعي بالذات) [2] فلابد من حالة الانغماس فى الإدراك ثم يجاوزها إلى الوعى بها، ومن ثم إدراك المجتمع ومحاولة تغييره، ولعل هذا يظهر بوضوح فى محاولة الشاعر الثائرة لدفع نفسه ومجتمعه إلى التغيير والثورة على واقعه فى قصيدة « جمرة » إذ يدعو إلى توجه مغاير، يقول [3] :

اتقـــدى، هـــل أراك متقـــدة ؟ يــا جمـرة فــى النفـوس منخمــده
يحرسـها المـين والسـلامة والـذل مهينــــــاً وشــــــهوة المعــــــده
تمـــالئ القاســـطين، إن جهـــر القــول وفــى الســرَّ أول الجحــده
حنـــاجر يهتـــف البغـــاء بهـــا يـــا أعـــدل العـــادلين والرشـــده
تســـوغ القهـــر تســـتلذ بـــه تزيـــد فـــى كـــل قـــاهر صـــيده

(١) ديوان أبى تمام – ح٢ – بشرح التبريزى – تحقيق محمد عزام – ص ٢٣.
(٢) من أحاديث الأدب والنقد – د/ السيد إبراهيم – ص ١٤٩ بتصرف.
(٣) ديوان زهرة النار ص ١٦.

وتفـــرش العنكبـــوت أنســـجة الهـــون بحـــد الأســـياف مغتمـــده

فالشاعر يرنو إلى مجتمع أفضل تشتعل فيه النفوس ثورة، وتزداد قوتها، فتبعد عن النفاق واللين والمهانة، ويغلب على الشاعر الصراع بين الألم والأمل، فهو يعانى آلام الواقع، يدفعه إلى التحمل الأمل فى مستقبل أفضل، ولكنه لا ينسى الماضي فهو دائماً يعود إليه باكياً على جهاده وجهاد إخوانه، وتظهر بوادر هذا الصراع فى قوله :

لغيـــر هـــذا أحلامنـــا ركضـــت إذا دجـــا يومهـــا تضـــئ غَـــدَه
لكـــن أحـــلام يومنـــا سُـــرقت وســـافرت فـــى الأوهـــام مضـــطهده
يـــا أوجهـــاً، لا يـــزال يطفئهـــا الخـــوف، وشـــوكاً هوانـــه خضـــده

وهكذا تظهر لنا ملامح الصراع التى مر بها الشاعر ومحاولته المرور من مرحلة اليأس والقنوط، ولكن ديناميكية الخوف تدفعه إلى مزيد من العزلة... فهو مثل شعراء جيله، ولكن هناك فروق فردية فى التناول والاستجابة، فقد « يشترك جيل من الشعراء فى مثير واحد، أو كلمة سر واحدة يبدأون منها ثم تتعدد طرقهم بعد ذلك كما رأينا فى شعر الجيل الأخير من الشعراء المصريين الذين نشأوا فى مرحلة من الزمن ينظرون إليها وإلى سكانهم فيها نظرة المسافر الذى خلفته السفينة وحيداً فى جزيرة ضائعة مهجورة، فهو يرى نفسه واقفاً خارج العالم، كما يرى هؤلاء الشعراء أنفسهم واقفين خارج التاريخ الذى انتهى حين بدأوا، فهم يعيشون الآن فى زمن وهمى أو فى زمن كأنه الأعراف الفاصلة بين زمنين ومنهم من ألقى بنفسه فى اليم، يغامر ببلوغ المستقبل المجهول، وبعضهم يريد العودة إلى الشاطئ الذى بدأت منه الرحلة. (١)

(١) شعراء ما بعد الديوان – مقال بقلم أ / أحمد عبد المغطى حجازى ص ٢٠٩.

بينما عبد اللطيف عبد الحليم فى الزمن الفاصل يستقى من القديم نماذجه ويرثى أيامه، ويرنو إلى مستقبل مشرق يأمل أن يحقق آلامه من خلاله، وفى نفس الوقت يرثى زمنه وحاضره ويعاتب نظرات اليأس الخنوع والضعف فيقول من قصيدة « جمرة » (١) :

يـــا أوجهـــاً لا يـــزال يطفئهـــا ... الخـــوف وشـــوكاً هوانـــه خضـــده
يـــا ألقـــاً فـــى العيـــون، أرمضـــه ... العجـــز وروحـــاً فـــى اليـــأس مفتقـــده
لمـــن تضـــئ النجـــوم بهجتهـــا ؟ ... لمـــن تظـــل الشـــموس متقـــده
لمـــن تجـــيش الأمـــواج صـــاهلة ؟ ... لمـــن هـــزيم الرعـــود مرتعـــده

وها هو ذا فى عزلته يراقب مجتمعه ويرصد ظواهره ويرثى لحاله، فهى ليست عزلة سلبية بل عزلة إيجابية تحفها ثورة عارمة تدفع به إلى حالة أخرى هى الثورة على هذا المجتمع، فيخف شعره ظاهرة الأمل فيرمى بسهام كلماته تشعل النفوس، توقظها من غفلتها يقول (٢) :

يـــا جمـــرة لا نـــزال نرقبهـــا ... تجـــرف منهـــا الخئـــون والقُعَـــدَه
اتقـــدى إن صـــبرنا أســـنت ... مياهـــه، والأشـــطان مبتعـــده

وها هى ذى تدفعه إلى أن ينظر إلى أقرانه نظرة المراقب والناقد وسهم شعره يوجه ويحرك، فتنطلق كلماته تخترق النفوس وتحركها من خمودها، وتدفع بها إلى أتون معركة مع الحياة وتمرد عليها.

٢ـ استشعار لذة الاغتراب

من خلال استقرائنا لشعر أبى همام نستشعر أصابع الاغتراب تمتد بين سطوره، وكأنه اختاره لنفسه، فهو يتلذذ بالاندماج فى هذه الحالة، فهو يفضل الاغتراب لأنه يجد فيه نفسه ، حتى فى حالة الحب، مثلما فعل الشاعر العربى

---

(١) زهرة النار – ص ١٨.
(٢) السابق ص ٢٢.

القديم عند ما شعر بالاغتراب النفسى لبعد المحبوبة، فعل ذلك شاعرنا المعاصر « أبو همام » ولكن المرأة قديماً كانت هى التى تبدأ بالاغتراب أما شاعرنا فهو الذى يغترب عن محبوبته فيقول فى قصيدة « انتظار » [١] :

انتظرى أوبتى سُدَى فلن ترى لهفتى غدا
قد صدئت فىّ نظرة، يوصَدُ من دونها
وانخمدت جمرة، تطفى نارها حكمة الردى
وصَّوحت روضة، تداعى الظلُّ فيها، تبددا
واحتبس الشدو فى فسم الشاعر، ما هام أوشدا

ويواجه محبوبته بصراحة ووضوح قلما توجد فى مجال الحب، فهو يشعرها بفقدان الأمل فى لقائه أو عودته إلى حبها مرة أخرى، فقد اغترب منها روحاً وجسداً، وامتد شعوره بالغربة إلى الطبيعة التى تشعر بأنينه وتتسمع نبضاته حيث يقول : [٢]

انتظرى غربة الزهور، انتظرى غربة الندى
واغتربى فى دمى أنيناً، لا يدانيك مقصدا
ركضت فى دمى رياح جمدت تسلم اليدا
اخترقى وحشة الفؤاد، اخترقى ضيعة المدى
وعانقى سورة الظنون، اصطحبى الليل سرمدا
شائهة لعظة اليقين تترك الباب موصدا
فانتظرى فى غد هتاف اليأس أو فارقى

ولم يفت الشاعر أن يلتفت إلى أصحاب القبور، فهم فى قبورهم فى حالة اغتراب، حيث اغتربوا عن دنياهم بما فيها من أحداث وذكريات، ولذلك نرى

(١) زهرة النار – ص ٨٣.
(٢) زهرة النار – ص ٨٤، ٨٥.

شاعرنا وقد تمنى الموت فى أكثر من موقف، فهو يستشعر فيه الراحة من شرور الحياة وويلاتها ونراه ينظر إلى أصحاب القبور وضوء القمر يداعب قبورهم، فهل يجدي معهم شعاعه، هل هو صلة بينهم وبين دنياهم التي اغتربوا عنها، هل كان لهم به ليل ونهار، هل أعاد إليهم ذكرى الأحباب، لنرى شاعرنا وهو يناجى القمر الذى داعب ضوؤه سكان القبور فى قصيدته " ضوء القمر فى المقابر " يقول [1] :

تدور ماشئت ما أكترثت بما ... تلقاه من عامر ومن خَرِب

تضيء داراً، ما عاد ساكنها ... يهتز من نشوة ومن طرب

حسبهم راحةٌ، فقد هجعت ... نفوسهم من شتات مغترب

وأن ذكرى الأحباب ما همست ... فيهم بغير النسيان والهرب

لا الليل ليلٌ، ولا صباحهم ... صبح، ولا فى الضياء من أرب

من شجر الصمت زادُ رحلتهم ... وقد تساوى الياقوت بالتُّرب

ويوجه حديثه إلى ضوء القمر ؛ ليدعهم فى اغترابهم وحياتهم الجديدة، ولا يعود بهم إلى حياة اغتربوا عنها وتركوها بما فيها من سلم وحرب وويلات، فلن تجدي الذكريات، فكان للاغتراب لذة ورفاهية فى نظر شاعرنا، فدعا القمر إلى الاغتراب عنهم إلى الدنيا، وإلى أناس يحتاجون ضوءه ليروى ظمأ قلوبهم، يقول [2] :

تدور يا بدر فى جماجمهم ... تخطب فيهم بمنطق ذَرِب

تضيئها، ناشراً هواجسها ... تبعث فيها شعاع مضطرب

تنهض الذكريات ساجعة ... ما العهد من رجعها بمقترب

---

(١) زهرة النار، « من مقام المنسرح » – ص ١١٤، ١١٥.

(٢) زهرة النار (من مقام المنسرح) ص ١١٥.

تسـلك منهـا مسـالكاً عميـت　　　إلا علـى عـارفٍ، ومـدرب
تنشـر مـا قـر مـن ضـمائرهم　　　فهـل تراهـا فـى الويـل والحـرب ؟
وهـل صـحت ذكريـاتهم　　　لعجت بهـم حياة الآمـال والكُـرَب
تهمـس فـيهم فـدعهم هجـدوا　　　صـمتك أجـدى يـا بـدر، فـاغترب
ودعهـم راقـدين مـرتحلاً　　　لعـالم مـن ضـيائه خـرب
واسكب على القلب إن بى ظمأ　　　لا يرتـوى مـن شـعاعك السَّـرِبِ

فالحياة بعد الموت غربة لا عودة منها، فأصحاب القبور لا يجدى معهم ضوء القمر، فهي غربة حسية فعلية ، فهم بينهم وليس كذلك، فهم فى قرب وبعد، وشاعرنا يرى أن هذه الحياة البرزخية أفضل من الحياة الدنيا، فظلمة القبر لا تحتاج إلى شعاع القمر، فهى ظلمة تضيئها السكينة والهدوء والبعد عن المجتمع بما فيه من زيف ونفاق وخداع. فلا حاجة بهم إلى ذكريات تثير موجدة، أو توقظ دفينا، وهكذا يستشعر شاعرنا لذة الاغتراب حتى ولو كان الطريق إليها هو الموت.

المبحث الرابع

مراحل الاغتراب في حياة الشاعر

وانعكاساتها فى شعره

مر شاعرنا بأدوار من الاغتراب تفاوتت فى مدى تأثيرها عليه كما تفاوتت فى النتائج وكان لهذه الأدوار الاغترابية أثر لا ينكر على عمله الإبداعى، وعلى تجاوبه مع الحياة.

كانت بداية الرحلة الاغترابية . كما ألمحت فيما تقدَّم . حين خرج من قريته وما شعر به من آلام اعترته نتيجة شعوره بغربة فى المدينة، بعد انتقاله من منبته الأول القرية التى تمثل عالمه المفضل، فقد خرج فى رحلته الأولى لطلب العلم مزوداً بنصائح اعتقد أهله أنها تقيه شر المدينة، وقد أوجس خيفة من المدينة منذ أول وهلة، فظلت مشاعره مرتبطة بالقربة فترة طويلة من الزمن ولازالت باقية في خياله، ها هو ذا يشدو مترنماً واصفاً سماءها وعبيرها وصفصافها، يهفو لنسيمها العليل، وزهورها المتراقصة فيقول من قصيدة « اللقاء والوداع»:(١)

لأننـــى مـــن قريـــة أنفاســـها تنـــامْ
تجـــثم فـــى مُـــلاءة الســـماء فـــى ســـلامْ
وينســـج العبيـــر و الصفصـــاف، والحمـــام
شـــــراع أغنياتهـــــا عذريـــــة الهيـــــام
وينتشـــى النســـيم فـــى أجنحـــة الطيـــور
وفـــى ظـــلال مائهـــا تـــراقص الزهـــور
يفـــوح عطرهـــا النـــدىُّ، يُـــؤنس الخريـــر
تـــورق النجـــوم فـــى جـــدائل الغـــدير

(١) زهرة النار (ديوان الخوف من المطر) ص ١٢٧٩.

الليـــل هيكـــل يصـــوغ للضـــمير أغنيـــه
يبـــرعمُ الصـــلاة فـــى أضـــلاعنا منديـــه
الكون يسلو نفسه والنفس تنسى من هيه
وأنجـــم تمتـــد فـــى أعماقنـــا مهتديـــه
وطيبـــــون أهلهـــــا كخفقـــــة النهـــــار
كرقصـــة الغـــدير فـــى انتعاشـــة القـــرار

فهو يصور فى قصيدته امتزاجه الشديد بموطنه « القرية» وإعجابه بكل شيء فيها، فهو يشعر بانتماء حقيقي لها، يتسمع أنفاسها الهادئة... تحتضنها السماء، ويتجاوب عبيرها وصفصافها وحمامها، لينسجا أغنية عذرية والليل هيكل يوقظ الضمير بأغنية، فتكاد نفس الشاعر تنسى من هيه، بل يكاد الكون ينسى من هو أمام جمال الطبيعة، ويتجاوب أهل القرية مع طبيعتهم الخلابة، فهم طيبون بسطاء كبساطة طبيعتهم، كخفقة النهار ورقصة الغدير.

وها هو ذا شاعرنا يرسم بريشة فنان بارع صورة لقريته الغناء التى حرم منها ومن أهلها لتتقاذفه أمواج المدينة وأضواؤها وأصواتها الصاخبة، فيتخبط فى زحامها، فيشعر بغربة حقيقية عمقتها متاهة المدينة فانطوى شاعرنا على ذكرياته القديمة يحملها داخل قلبه الذى تسكنه القرية، وها هو ذا يشكو وحدته وعزلته فى هذه المدينة الصاخبة :

وذات يـــوم، جئـــت فـــى مدينـــة الزحـــام
أحمـــل قريتـــى، وغربتـــى، مـــع الســـلام
النـــاس كالرمـــال، والنهـــار كـــالظلام
عيـــونهم لاهثـــة جامـــدة الكـــلام

وأحمـــل الـــدعاء مـــن صـــحائف الضـــلوع
وحزمـــة مـــن الســـلام موقـــد الشـــموع
ولتقـرأ القـرآن « للحسـين » فـى خشـوع
إيـــاك يـــا بنـــى أن تضـــيع، أن تضـــييع
لكنـــى – يـــا ويلتـــى – فـــى بلـــد غريـــب
كحقـــل حنطـــة، تجـــاه عاصـــف غضـــوب
ظالمـــةٌ مـــدينتى، تشـــمس فـــى الغـــروب
وأهلهـــا يمضـــمون، تـــائهين كالـــدروب
تلعثمـــت أقـــدامى، الضـــريرة المســـير
الـدربُ أخـرس الريـاح، ضـائع المصـير (١)

ومن هنا تظهر لنا دعائم هذا الشعور بالغربة فهو محمل بهذا الشعور منذ أول وهلة منذ خروجه من قريته محملا بأدعية الحفظ والرعاية والحماية ضد الغريب المجهول وعبارة نغماته مازالت تتأجج فى قلبه وضلوعه لم ينسها بعد وهى : « إياك يا بنى أن تضيع أن تضيع »..... ولكن هيهات هيهات أن يقاوم هذا الغصن الأخضر الغض رياح المدينة العاتية الغضوب وأضواءها البازغة وسط أصوات صاخبة صيَّرت الليل نهاراً وأهلها يمضون فى هذه المتاهة لا يعرفون من أين ولا إلى أين يذهبون وشاعرنا الغض تتلعثم خطواته من أول الدرب لا يعرف إلى أين يسير وهنا تتعمق غربة الشاعر ، فيزداد تمسكه بحياة القرية ويظل مشدوداً إليها لظلها الوريف وغديرها الرقراق : (٢)

(١) الخوف من المطر ص ٢٨٠، ٢٨١.
(٢) زهرة النار « ديوان الخوف من المطر » ص ٢٨٢.

لكننـــى أحمـــل قلـــب قريتـــى الأليـــف
يشـــــدنى برعشـــــة، لظلهـــــا الوريـــــف
ويجـــذب العيـــون للغـــدير، والحفيـــف
ولهفـــة الضـــلوع فـــى وداعهـــا اللهيـــف

وها هو يشعر بالوحدة والعزلة تتجاذبه لا يستطيع التخلص من إسارها :

وإننـــى مازلـــت فـــى مـــدينتى وحيـــد
وأحمـــل الـــدعاء والســـلام والوعـــود (١)

ونمضى فى طريق الغربة مع شاعرنا المغترب « أبى همام » حيث تمر به الأعوام فيشعر أحيانا بالاستسلام ولكن تعاوده ذكريات الطفولة فى القرية حيث حريته وانطلاقه يسابق طيرها الشادي وينعم بجمال شمسها ويقطف من حسنها ويحتضن بدرها وسط أطفال لا يقلون عنه انطلاقاً وحيوية ويظل طيف القرية وذكراها يمر به إلى أن يستيقظ على الحقيقة التي يفر منها ألا وهى يوم هجرته القرية إلى المدينة. فتمضى أيامه ثقالاً، بخطوات تائهة وابتسامة باكية فتقضى على أحلامه، وتتشابه السنون فى قصيدته العودة إلى القرية يقول : (٢)

مضـت أعوامنـا، لـم تـدر كيـف تسـوقنا الـدنيا
نطاوعهـــا كأنعـــام، تـــروم الأكـــل والســـقيا
فـــلا نختـــار أن نفنـــى ولا نختـــار أن نحيـــا
علـــى أفيـــاء قريتـــيَ التـــى مازجتهـــا طفـــلا
أسـابق طيرهـا الشـادي وأقطـف حسـنها ظـلا

(١) السابق ص ٢٨٣.
(٢) السابق ص ٢٥٨.

أطـرِّز شمسـها ثوبـا وأحضـن بـدرها لـيلا
وأبنـى مـن مهيـل التّـرب أبياتـاً لأفكـارى
وأحطم فى طريقى كل ما شاء الهوى الجارى

❁❁❁❁❁

ويمضى بى سُرى الأيام حتى شبَّ بى زمنى
وأهجر قريتى، وأسير حيث يجرنى ظعنى
على أرض المدينة عشت، ما أقسى ثرى
أجر العمر عريان الخواطر تائه الخطو
وأبكى من خلال البسمة المعروفة الصَّحو
تقئُ بيوتها الصماءُ أحلامى بلا شجو
على ثبج المدينة، والشبيبة هكذا عشنا

ويمضى به الحنين إلى القرية، فيقرر الزيارة لعله يستعيد أيام طفولته، ويحيا عمره الذى يمر به دون أن يشعر فيه بسعادته الحقيقية حيث يفقده الاغتراب نشوة الاستمتاع بالحياة ولكن هل ستعيده إليه هذه العودة ما فقده وهل ستحيى فى قلبه لذة بالحياة لنرى ماذا فعل شاعرنا عندما عاد إلى قريته:

ويوماً هزنى خفقى إلى قريتى الصغرى
إليها، حيث دربى طائر الأنفاس والذكرى
وحيث يضمنى مهدى إلى أضلاعه الكبرى
وعدت إليك نجمة ليلة تشتاق يا بلدى
كطير راعش الأحداق، أجنحه بلا جلد

أنوء بحملى المضني وتذوى من أسايَ يدى
إلى دفء الطفولة عدت أدفئ ثلج أيامى
ربيع يغرس الأنداء بين قفار آلامي
أعانق فيه طيف طفولتي النشوى وأنغامي

وهنا نرى شاعرنا وقد اهتز قلبه شوقا إلى قريته مهده الأول ووطنه الحقيقى عاد إليها باحثا عن الدفء عن الشعور بالأمان والطمأنينة باحثا عن ربيع الحياة الذى افتقده فى المدينة، وطيف الطفولة يلوح له فى الطريق، ولكن الشاعر اليوم ليس له طفل الأمس، فأعوام الغربة ذهبت بحيوية الجسد والعقل أصبح مكدوداً من أحماله والصمت والجمود قد حفت بيته فى القرية، وبذلك أصبح شاعرنا غريبا فى وطنه الأول وهو القرية فنراه يقول [1] :

ولكنى رجعت لها فقيد الظل واللون
معى الأحمال من كتب أرويها سنا عينى
وأقضى يومى المكدود بين سحائب
فبيتى صار جدراناً من الصمت الذى
ولم يقطع شحوب الصمت غير الشيخ ما
وغير صرير مسبحة تعدُّ ولا تني عددا

❁❁❁

ولكنى أفتش عن مداى وعن سنى عمرى
وأسأل شارعى الممتد عن طفل به

(١) زهرة النار (ديوان الخوف من المطر) – ص ٢٥٩.

تولى ذلك الطفل الذى يدرى، ولا يدرى

فيا بلدى، ويادارى، ويا آذان جدرانى

طفولتى التى طويت أعيدوا سحرها الدانى

خذوا عمرى الذى يأتى فإن الآتى الفانى

وهنا بدأ الشعور بالاغتراب داخل الشاعر، فهو يشعر بغربته داخل قريته، فهو غريب داخل وطنه، ولم يجد الشاعر سوى النسيان سبيلاً للهروب من همومه وأشجانه، فيقول فى قصيدته نهر النسيان [1]:

ولم أجد قريتى تمازجنى	**وضعت بين الدروب فى المدن**
وأطلق النار بين جانحتى	**لواعج الذكر فيك والحزن**
فكيف أنسى والروح فى بدنى	**وكيف أنسى وأنت لى وطنى**
حتى أقمت الضريح ياسكنى	**وبتّ طى النسيان فى كفن**

وهنا يبدأ الشاعر فى مرحلة أخرى، وهو شعوره بالاغتراب الاجتماعى والسياسى والنفسى، فهو مغترب فى وطنه، ويزداد هذا الشعور عنده شيئاً فشيئاً.

لقد اعترت شاعرنا غربة داخل وطنه، حيث توالت الأزمات، وانتشحت نفسه بالسواد، فإذا نظرنا إلى أعماله الشعرية بعد ذلك، نلاحظ أنها غدت تسودها الحيرة والضياع والإحباط، فهو يحمل فى نفسه صراعاً داخلياً بين الواقع والمثال فى عالم افتقد فيه حريته، وانهارت المثل، وامتد شبح الظلم

(١) السابق ص ٢٨٩.

يسيطر على المجتمع، وقد جسدت قصيدته (مصر بين عهدين) هذه الأوضاع المتردية، يقول(1) :

دمــروا نخــوة شــعبى، فغــدا — وهو فى الحرب وفى السلم يضام
الجهـــالات تولـــت رعيـــه — والدســـاتير : ســـجون وحســـام
ومضـى الحـق حسـيراً، وحـده — إذ غـدا الزيـف لـه فيـه احتكـام
لا تقولـــوا : إنهـــا حريـــة — اســتوى فيهــا الأناســي والســوام
وزعـوا الفقـر علـى النـاس ولـم — يتقـوا الحـق، وقـد حـل الحـرام
لا تقولـــوا : إنهـــا حريـــة — وفمـــى أدمـــاه بالصـــمت لجـــام

امتد شعوره بالغربة بين إخوانه من ذوى الأقلام، فقد شاهت النفوس، وضاعت القيم، وامتدت أقلام زائفة لتبنى لنفسها صرحاً بين صروح شامخة، ويمتد ظلها يطغى على أصحاب الكلمة الجادة والأعمال الإبداعية الجادة وامتدت سطوة الزيف على المجتمع فسادت العجمة، وانزوت العربية الأصلية تبكى مجدها التليد، وهنا ينهض شاعرنا أباهمام يرثى مآل وطنه فى لوحة فنية استوحاها من واقعه المؤلم يقول من قصيدة « أغنية للنار» (2) :

مســـتفعلن، فـــاعلن، فعـــول — تثـــاءب الظـــل والنخيـــل
وغـــادرت شمســـنا بهاهـــا — وغـــادر الموكـــب الـــدليل
اسـتعجم العـرب فـى المـوامى — واســتعرب الــروم والمغــول
لــم يبــق « للأصــمعى» فينــا — بيانــــه وانــــزوى الخليــــل
أنســـابها أنكـــرت قـــريش — وانتســـب النَّغـــل والـــدخيل

(1) أغاني العاشق الأندلسي (ديوان لزوميات وقصائد أخرى) ص ١٠٨، ١٠٩.

(2) أغاني العاشق الأندلسي ص ٤٠.

وأصـــــبح القـــــائمون فينـــــا يـــدركهم فـــى الضـــحى الأفـــول
ســـــادتهم يحكمـــــون فـــــيهم وفـــى الـــدماء ســـادت الغلـــول
عســـــكرنا زينـــــة وريـــــش ومنظـــــر نـــــاعم صـــــقيل
وســـــطوة فوقنـــــا ولكـــــن عنـــد احمـــرار الـــوغى فلـــول

فقد أصبح العربى بوجه عام، وأدباؤنا الجادون خاصة يعانون غربة ذاتية فى وطنهم، فقد عجزوا عن مواجهة هذا الواقع المؤلم أو التأقلم معه ومسايرته، فعانوا من انفصال الذات عن المجتمع، وعانوا من أزمة اللغة داخل وطنها، وهذه أزمة قد يعانيها حقاً المغترب عن وطنه، أما المغترب فى وطنه فهى أشد وقعاً وتأثيراً عليه فتصك أسماعهم هذه الرطانة المشبوهة، والثقافة المشوَّهة، ثم يتراءى لنا مقطع آخر فى القصيدة تتفاقم فيه نكبة الاغتراب، فالوطن المقهور يلفظ أبناءه النبلاء، وشاعرنا المبدع تلفظه غربة لأخرى، فلم يكتف بكون غربته شعوراً وإحساساً فقط، بل أصبحت تصريحاً، فمن حوله يدفعونه إلى مزيد من الاغتراب يدعمه خوف من المجهول وشعور بالإحباط، صوَّر ذلك فى قصيدته بقوله(١) :

أن تلفـــظ الأرض مـــن بنيهـــا طائفـــــة ليلهـــــا طويـــــل
تـــــدفعها غربـــــة لأخـــــرى يطرحهـــــا شـــــاطئ ونيـــــل
خمرتهـــا الـــذل والتمنـــى إقـــدامها الخشـــية النّكـــول
يعولهـــا المـــين والـــوداد المهـــين، ينمـــو بهـــا الخمـــول
تزيـــــد بـــــالنقص تشـــــتهيه يَبْلَـــهُ فـــى وجههـــا الـــذهول

---

(١) السابق ص ٤٦.

ولكن الشاعر يضيف عنصراً جديداً إلى الأزمة وهو هروب المجتمع نفسه من مواجهة مأساته، فيدفن رأسه فى الرمال، أو ينسج حول نفسه شرنقة كدودة القز، مما يؤدى به إلى تخلف حضاري يفقده حريته ويضاعف من نكباته، وقد صور شاعرنا هذه الأزمة بصراحة ووضوح في هذه القصيدة التي يختلط فيها الألم بالأمل ، فهو يتألم من أجل وطنه الذى عمه البلاء والمعايير المضطربة ، وساده الكسل والخمول، يقول [١] :

وتنسج العنكبوت بيوتها، يخمد الفتيل
وتجمد العين لا شعاع يضيء لا تصهل الخيول
تبنى على نفسها سفاهاً كدودة القز، تستحيل
مذنبة أنها استكانت فضلَّ فى خَطْوها السبيل
فانخمدت فى العروق نارٌ ونسيت شحذها النُصول

وتتعالى صرخاته، وقد مزقه اليأس بعد شعوره بالاهتزاز وعدم الرضى عن الأوضاع القائمة، ورفض الاتجاهات السائدة، يقول [٢] :

أين أين – الغداة أرض غادرها ظلها الظليل
أحسبنى فوقها معاراً إلى مدى، مدُّه قليل
تموت فى الجذور، تَعْرى الغصون، لا تحتفى الفصول

❁❁❁

أراقب الموج أين يمضى أركبه حيثما يميل
فبينما يحسن ارتفاع إذا به يحسن النزول

(١) السابق ص ٤٧.
(٢) السابق ص ٤٩.

ويصل الشاعر هنا إلى مرحلة تمرد وثورة، ودعوة إلى تغيير المجتمع ليعود إلى طبعه الأصيل، ومواجهة التحديات الطارئة ، التى عصفت بكيانه ودفعته إلى الاستكانة، ثم شعور بالانهزامية، أدت إلى تعذيب أبنائه، فقد صاروا فى أوطانهم غرباء بثياب وطنية وملامح شرقية، وها هى ذى نبرات القصيدة تعلو مع ثورة الشاعر، وتتجاوب موسيقاها مع ندائه وينبرى شاعرنا يحرك الأحاسيس والمشاعر للتجاوب مع صليل ثورته، فتشتعل الثورة داخل الصدور، وتختمر قبل أن تخرج إلى الواقع المرير، وتسرى فى العروق تذيب ثلوج الاستكانة والمذلة، وشاعرنا يعبر عن ثورته وتمرده على الواقع فى قصيدته، يقول (١) :

أيتهـــا النـــار، أيـــن جمـــر ... يُشـــعله طبعـــك الأصـــيل ؟
أهالـــكِ اليـــومَ أنَّ ركبـــاً ... عـــزّ علـــى خطـــوه الوصـــول ؟
أن يســـتحيل الســـنا رمـــاداً ... ويرمـــد النـــاظر الكحيـــل ؟
ويســـتحيل القصـــيد نثـــراً ... وينبـــرى الناقـــد الجهـــول

أيتهـــا النـــار لا تقـــرى ... واشـــتعلى صـــبرنا ملـــول
تـــدفقى فـــى العـــروق عصـــفاً ... ينجـــرف الـــثلج التلـــول
وزلـــولى فـــى الضـــلوع صـــبراً ... طـــال بنـــا إصـــره الكســـول
فقـــد ظمئنـــا، وقـــد ظمئنـــا ... وآن أن يرتـــوى الغليـــل

ومن هنا فقد وصل الشاعر إلى نتيجة إيجابية من الاغتراب ألا وهى التمرد والثورة على المجتمع.

---

(١) السابق ص ٥٠، ٥١.

ويمر شاعرنا بمرحلة أخرى، وشعور جديد بالاغتراب صنعه الوهم والخيال ودعمه الواقع، فقد عاش شاعرنا طويلاً يحلم بالأندلس، التى كثيراً ما قرأ عنها فى دوادين الشعراء كابن خفاجة، وابن شهيد، وابن زيدون، وفى كتب الأدب كنفح الطيب، والعقد الفريد، ولذلك قال : « كانت البعثة إلى أسبانيا – أو الأندلس – ولهذا الاسم بريق خاص، ربما صحبنى طوال سنوات الدراسة بدار العلوم، حلم يقظة أو حلم نوم » (١)

فنسج الشاعر للأندلس صورة خاصة في مخيلته، وعايش هذه الصورة فى أحلامه، إلى أن تحقق له الحلم أو تخيل أنه تحقق عندما أتيحت له فرصة السفر إلى أسبانيا خلال البعثة التى رشحته الكلية لها رغم أن هذه الفرصة كادت أن تضيع، وتجاوز شاعرنا هذه الأزمة، واقترب من حلمه، وسافر إلى بلاد الأندلس.

وإذا كان شاعرنا فى بداية حياته اعتراه خوف وقلق عند ما ترك قريته واتجه للمدينة، فإن هذا الخوف لم يصاحبه عند سفره لأسبانيا، لأنه عايشها روحياً قبل أن ينتقل إليها، فقد سافر إليها، وهو يتخيل قصورها وحدائقها وفتيانها وفتياتها، يتخيل المسجد العربى القديم فى الأندلس والتى تمنى رؤيته، فلم يشعر بداية بالغربة، فقد كان يعتبر الأندلس موطنه الثانى ، فهل تحققت أحلام الشاعر وأمانيه كما أراد وكما تخيل، وهل أعانه الواقع على تحقيق ما يريد ؟ ولنقرأ قصيدته " كارمن إشبيلية " لنتعرف على حياته فى الأندلس، وعلى مشاعره تجاه الواقع الحقيقى الذى اكتشفه فى بلاد الأندلس يقول (٢) :

بيــت هنــاك يحتمــى، بالظــل والقرنفــل
مســـيجاً بعوســـج، موشـــحاً بجـــدول

(١) شعراء ما بعد الديوان د/ عد اللطيف عبد الحليم – ص ١٢٨.
(٢) أغانى العاشق الأندلسى – ص ٧

ينـــتظم الفـــل بـــه، عقـــد غـــرامٍ ثمِـــل
وكرمـــة تعتصـــر الشـــموس منـــذ الأزل
جـذورها توغـل فـى قلبـى، لـيس تـأتلى
تســكر منهــا شــرفة، تُعَــلُّ قبــل النَّهــل
فى ساحة يحرسها، عطر الشباب الغزل
الـوهج المشـمس فيهـا، موجـة مـن قبـل
يحســبه الفــراش نــاراً، فيجــيء يصــطلى

فهذه هى اللقطة الأولى، أو ما يمكن أن أسميها اللوحة الأولى التى أبدعتها ريشة هذا الفنان، وهو جالس فى شرفة منزله فى إشبيلية، إنها لقطات عادية من تلك المناظر المتناثرة التى تقع فى مرأى عين من ينظر من شرفة منزله، ولكن كيف كونت عين الشاعر من هذه اللقطات المتناثرة موضوعاً ذا دلالة ولوحة ذات تكوين متكامل ؟ فقد تدرجت اللقطات تدرجاً مكانياً بحسب امتداد النظر من الأقرب إلى الأبعد، فتبدأ اللقطة الأولى من البيت حيث يجلس الشاعر فى شرفته، والبيت محوط بظل الأشجار، وزهرات الفل كأنها عقد من اللآلئ يقدمه حبيب إلى حبيبته، وفى جو من الدعة قد غشيته الثمالة، وفى ساحة البيت كرمة قد أحاطت به وارتفعت أورقها وعروقها فى اتجاه الشمس، فهى تعتصر ضوءها وحرارتها، وكأنما تفعل ذلك منذ الأزل.... إنه يراها مغروسة فى موضعها منذ عهد الأندلس القديم.. هكذا يتوهم، فجذورها توغل فى قلبه إيغالا لا يتوقف، وهو يسكر منها، فينعكس ما يجد من سكر ولذة على كل ما حوله، فيرى الشرفة التى تمتد فروع الكرمة حولها تسكر أيضاً ويمتد بصر الشاعر إلى الساحة حول البيت وهذه الساحة لها حراسها ولكنها لا تحرس بجند ولا سلاح، وإنما يحرسها عطر الشباب الغزل، والفراش يحسب ضوء الشمس بصيصاً من نار فى أمسية هادئة فيحوم حول هذا البصيص ليصطلي فى هناءة وسرور.

إنها لوحة ترسم جواً من الوداعة نرى فيها حرص الشاعر على أن يلمح بقايا الماضي في الحاضر، إنه يريد أن يرى فى حاضره ما يستدعيه من ذاكرته الشعرية عن أخبار الأندلس وجودها الوداع المترف الهنيء الغارق فى اللذة [١]، إنها حلم الشاعر كما تخيله في شبابه، ولكن شاعرنا لا يستمرئ هذه اللذة الخادعة ؛ لأنه يصحو على واقع أليم استشعر من خلاله أنه يعيش بين قوم غرباء عنه، وقد عبر عن ذلك بقوله [٢] :

وعـازف يسـرق ألحـان الهـوى، مـن بلبـل
تسرى بهـا الصـهباء – يـا قاتلـة – لـم تقتـل
تميـــد أعطـــاف وتغفـــو نظـــرات المقـــل
وفتيـــة، ينفـــون بالصـــهباء طعـــم الملـــل
وشـــيخة فـــى « البـــار» يلتقـــون للتعلـــل
القبعـــات، والعصـــى، نظـــرات الكســـل
موائـــد النبيـــذ، والتبـــغ، وأشـــهى مأكـــل
أعيـــنهم طافحـــة، بشـــبق التطفـــل
لكنهـــا طيبـــة، بعجزهـــا المـــذلَّل

وتتهادى إلى سمعه ألحان جميلة كأنما سرقها عازف من بلبل صداح، وينادى شاعرنا « كارمن » بقوله يا « قاتلة » على طريقه الشاعر العربى القديم، فهو يبحث وسط الزحام المتناثر لكى يرى من خلالها الفتاة العربية القديمة، أو بالأحرى إشبيلية الأندلسية، فهو يحاول استحضار الصورة العربية القديمة ولكن الواقع يقف حائلاً بينه وبينها، فتصيبه مسحة من الكآبة والحزن، فإن مشهد الفتية والشيخة، يرينا اجتماع ضدين فى غاية واحدة، فرضتها

(١) شعراء ما بعد الديوان – ص ٢٩٢، ٢٩٣ بتصرف
(٢) أغانى العاشق الأندلسى ص ٧

طبيعة الحياة الناعمة فى هذه البيئة الأندلسية (الأسبانية) التى كان ينعم بها أجدادنا العرب فى جو مشابه لهذا الجو حينما كانت تعقد مجالس الأنس التى خلد ذكرها أصحاب الموشحات، وعلى الرغم من التشابه بين ما كان فى الماضى، وما يراه فى الحاضر من جو النعمة واللذة، فإن الشاعر فى وصفه يلتفت إلى حقيقة واقعة، فالفتية فى تساقيهم الخمر، إنما ينفون طعم الملل، والشيخة فى استقبالها لهم إنما يجتمعون حولها للتعلل.

ويكفى أن نستدل على ما يشعر به من غربة وإحباط بكلمتي « البار» و «القبعات » فهؤلاء قوم آخرون غير قومه، وجيرة ما كان يود أن يراها، فلمحات الطيبة ليس مصدرها خصوبة النفس، ولكن مصدرها العجز الذي أذلته سنوات العمر، إنهم ليسوا أهله، فهم قوم غرباء عنه. (١)

وتتوالى اللقطات التى تشير إلى غربة صبغها الواقع، وأيدتها مشاهده، فهو يصور اغترابه فى لقطته الأخيرة، يقول : (٢)

وغجـرى هـاتفٌ، مـن فـوق بغـل مُثقَـل
بصوته المبحوح، من عميق زمانٍ موغل موغل
يوغل فى الأضلاع، إيغال السَّنا فى جدول
كنـت هنـاك أحتمـى، بالظـل، والقرنفـل
أجـدل أطيـاف المنـى، معزوفـة للأمـل
أبحث عنك، فى فراشات الصباح المخملى
أبحث عنك – ماضياً – وفى الزمان المقبل
عن وجهك المألوف لى، منذ زمانى الأول
فردنـى سـورك نحـو البـار لـم يـرقَّ لـى

(١) شعراء ما بعد الديوان – ص ٢٩٥، ٢٩٦.
(٢) أغانى العاشق الأندلس ص ٨، ٩.

ترنحت شمس الضحى، تثاءبت فى
لست هناك أيها الوهم : أقمْ، أو فارحل
والغجرى هاتفٌ، يدور حول المنزل

فهو فى هذا المقطع من القصيدة يتخيل نفسه فى صورة هذا الغجرى الهاتف، وقد أثقل بغله بالأشياء القديمة التى اشتراها أو جمعها مما زاد عن حاجة الناس أو استغنوا عنه لقدمه، وهو دائب على هتافه بصوته المبحوح لطول ما صاح به فى عالم قد نبذه، واستغنى عنه، ولكن ما يعينه على البقاء والاستمرار هو شعوره بأصالته وإن أنكره من حوله [١]، إن الشاعر يحاول مغالبة شعوره بالغربة فى المجتمع الأسباني، ولكن القصيدة وخاصة إيحاءات الصور والألفاظ تفوح بالألم والإحباط والشعور المكثف بالغربة مع التعلق الواهم بالماضى.

ويظل إبداع الشاعر فى بلاد الأندلس متعلقاً بأمجاد الماضي يشعر بحنين دائم إليه، ولكنه لا يلبث أن يرتد إلى حاضره، فهو ينتقل إلى قرطبة باحثاً عن كارمن، والتى يرمز بها للفتاة العربية، أو المدينة العربية القديمة وأمجادها التى اندثرت مع مرور الزمن، ويزداد اندماجه بالماضي فيصيح صيحات الناصر تزلزل الصدور، يقول [٢] :

كارمن يا سر الهوى والنوى ... ويا صدى من أسف مثقل
أراك من « قرطبة » نفحة ... ضَنَّ بها يومى، فلم تبذل
تصحو بك « الزهراء» مشدوهة ... خلف التلال الصمَّ، والجندل
وصيحة الناصر لا تنثنى ... توغل فى الأضلع كالأنْصل

(١) شعراء ما بعد الديوان – ص ٢٩٧ – بتصرف.
(٢) أغانى العاشق الأندلس – ص ١١.

ما « الناصر» المنصور، فى درعه أن يحيى المطعون فى مقتلِ
ما الأعين الرزق، وأطيافها إلا نذير بأسيٍّ مقبلِ

ولكن شاعرنا يعود إلى وعيه بعد صراع بين مجد الماضى، وضياع الحاضر، فيستسلم لحزنه وغربته وآلامه، وترتفع درجة الحس المأساوى التى تعصف به ، وجعلت منه صوتاً خاصاً، يختلط فيه الألم والأمل، وشعور بالعجز عن إحياء الزمن الماضى، فأصبح مطرقاً شارداً لا ملجأ إليه سوى نزيف الحزن والألم تتجاذبه أطباق الحنين إلى حلمه القديم، يحاول إحياءه فى أعماقه، ولكن لم يستسلم، فقد ظل شوقه وحنينه للماضي يعتريه كلما أغمض عينيه، واختلى إلى نفسه يتخيل محبوبته وفاتنته الأندلس القديمة العريقة ذات الأصول العربية التي تشعل فى قلبه شوقاً، وهو يعبر عن ذلك، يقول [1] :

ترتاح عيناى، وهل راحة لمن قضى فى الزمن الأول ؟
إنى أنا المطرق، لا شئ لى غير نزيف الحزن من موئل
إنى أنا الهاجع، لا صحو يى إلا بأن أُصْحى زماناً بلى
إنى أنا المجتر معزوفة أنسى بها يومى، لا أئتلى
إنى أنا الراحل، والشوق فى الأعماق يا فاتنى يغتلى
فزودى رحلته، واصحبيه إنه دونك لم يرحل
شرفتك الزهراء مجلوة مفردة، طاب بها منزلى
وانتظرينى إننى عاشق واشعلى حبك بى، اشعلى

ويعود شاعرنا إلى « مصر » مرة أخرى، فهل يجد السكينة والأمان، هل يستطيع أن يتجاوب مع مجتمعه فى وطنه، أم تتقاذفه أمواج الفتن والدسائس

(١) السابق – ص ١٢،١٣.

وتهوى به لافتات الكذب والخداع، ولكن صرخات الألم وعدم قدرته على تقبل الواقع يدفعه إلى شرود، وإلى وحدته المأنوسة كما سماها من قبل، فهو يصور نفسه فى قصيدة « حالة » يبين فيها ما يعتريه من حزن وإحباط بين أصدقائه، فالألم يشق الضحكات، ويهوى بقلبه، وترتد ضحكاته مطوية بدموع الوحدة الأبدية، وبين ضلوعه نار، كلما ظن أن جذوتها قد خمدت تعود مرة أخرى، يقول [1] :

بينما يورق الحديث مع الصحب، وننسى من الزمان عتيّه
وتشق الضحكات أروقة الحزن، تطير الآلام، وهى عصيه
تلمعُ الغبطة الندية فى الأعين، كالزهر فى الرياض النديه
تتراءين للخيال رياحاً نبهت جمرة الشجون الخفيه
فإذا بالحديث يجتاحه الجدب، وترتد ضحكتى مطويه
وإذا بالعيون يطفئها الدمع، وأمتص وحدتى الأبديه
ويهز الصحاب رأسى، لا شيء سوى نظرة الوجوم الشقيه
يا صحابى عفواً، مللتم مقامى، إن بين الضلوع ناراً نزيه

فتتباين أحاسيس الشاعر بين ضحكات مدوية تتحول أحياناً إلى دموع وشرود وحزن غامض وأسى دفين فى الضلوع، فشاعرنا يمزج بين واقعيته ورومانسيته، فتغلب عليه أحياناً نغمة اليأس، تم يندفع إلى حالة من الاغتراب، يشعر خلالها بالحقيقة ماثلة أمام ناظريه جلية واضحة، وتظهر المفارقة صريحة بين مجتمعه ونفسه، وقد يدفعها حنياً للمخاتلة، وهو يعرف أن نفسه البية تأنف راحة إلا بطلب الموت، فهو راحة أبدية من هذه الآلام وهو يندفع مع نفسه فى قصيدة الصدق فى الكذب، يقول [2] :

---

(١) أغانى العاشق الأندلس (ديوان لزوميات وقصائد أخرى – ص ٦٣، ٦٤)
(٢) السابق ص ٨٢، ٨٣.

خادع النفس – ما استطعت – فما يحمل عيش إلا بهذا الخداع
وارض بالكذب، ربما هدهد القلب وأجرى السفين دون شراع
واجعل الآل رى نفسك – ما عشت– إذا الماء لج فى الإمتاع.
واغتنم فسحة الرجاء، فإن الصدق يأس يشد نحو القاع.
واصدق النفس فى الخداع وهادن جمحات تصول فى الأضلاع.
ويح نفسى تعاف زيف الأمانىّ، فعاشت فى لوعة وضياع
أيها الموت، هات كفك أخرج ما بهذا الفؤاد من أوجاع.

وتدفعه غربته داخل مجتمعه إلى « وحدة » وانعزال فى كثير من الأحيان، وهو يعزف على قيثارته مأساته وتراً من بعد وتر، فقد علمته الحياة أن يمضى وحيداً :

علمتنى قصة الحياة أن أمضى وحيداً لا سبيل علىّ

فهو يكره الزحام والكذب والخداع، ويرى فى وحدته أنيساً له ، وهى رؤية خاصة صورتها له رغبته فى المثالية التى ينشدها، و لم يجد له سبيلاً سوى الاغتراب فى وطنه، فكانت الوحدة المأنوسة التى يقف من خلالها يرى المجتمع، وما فيه من ثقافة مشوهة، ولوثت الحياة حتى أصبح شاعرنا يشتاق للموت هرباً وخوفاً مما تحتويه من مجهول، يقول [1] :

لا أرانى، وإن تفردت فى الدنيا وحيداً وعفت دنيا الأنام
لى همٌّ يصافح الأنجم الزهر ويصطادُ سانحات الظلام
ويضم الحياة صافية النور ويمتد فى شعاب الحمام
ويهز الفانين فى غيهب القبر فيحيون بعد طول مقام
ويهز الآباد سافرة الوجه ويمتص شوقها المترامى

(١) السابق ص ٨٤، ٨٥.

أتملى الوجود فى قبضة الله جديداً، تجتابه أنغامى
وحدتى – لا عدمتها – يجهل الناس مداها – أنس بغير زحام

❁❁❁

ويزداد شعوره بالوحدة والاغتراب، عندما يخرج بعيداً عن وطنه، فيندفع مجبراً إلى « غربة اقتصادية » تحفها الحيرة والألم، حيث كان معاراً إلى عمان، بعيداً عن أقرب الناس إليه، وهم زوجه وأولاده، فكانت وحدة حقيقة لم تخترها نفسه، ولكن شوقه إلى وطنه – على الرغم مما يعانيه فيه – دفعه إلى العودة مرة أخرى، وقد رثى نفسه فى قصيدته « مرثية أستاذ معار » وكأن هذه الإعارة كانت فترة من حياته مرت دون أن يشعر فيها بالحياة، فأطلق زفراته وأناته من خلال شعره، يقول [1]:

تشابهت أيامه، لا صبح، لا مساء
لا زوج، لا أولاد يلتقون، لا نداء
الفقر والعودة توأمان فى خياله
لا يعرف الأسرة، كيف، والهوى فى ماله ؟
ونسى الأحلام، والحقول والقبل
والناى، والحنجرة المبحوحة الغزل
وأنه يموت كل لحظة، بلا ثمن
والعنكبوت تنسج الهون له، مع الكفن
لكن صوتاً عاتياً يطل دون أن يمل
« قاتلنا مخرجنا» [2] من دارنا بلا أمل

(١) أغانى العاشق الأندلس – ص٢٨، ٢٩.

(٢) فى البيت إشارة إلى كلمة معاوية حين قتل عمار بن ياسر وهى : إنما قتله من أخرجه، رداً على من قال له : إن النبى ﷺ قال لعمار : تقتلك الفئة الباغية، فتخلص معاوية من إدانة الحديث له بذلك التأويل الذكى.

ففى هذه القصيدة تتبلور رؤية الشاعر لعذاب المغترب عن وطنه، ولكن ليس اغتراباً مادياً فحسب، بل إنه اغتراب حسي، فالشاعر فى غربته يعانى آلام الغربة عن الأهل والولد يضاعفها شعوره بالظلم تجاه من دفعه إلى الاغتراب عن وطنه فيتصاعد غضبه المكبوح وأساه الدفين من خلال صرخته التى أطلق بها ما بين جوانحه من شعور بالألم والإحباط حيث قال « قاتلنا مخرجنا ».

فكرية أو اقتصادية أو سياسية دفعته إلى مزيد من الاغتراب مما أدى إلى شعوره بالقلق والإحباط والخوف والتوتر، ثم يعود شاعرنا إلى مواجهة الواقع بثورة عليه، وقد يعانى اليأس الذى يدفعه إلى الوحدة، ولكنها وحده مأنوسة بمشاعر متأججة، وفكر راقٍ، وذهن متوقد يحول فى أفق الواقع محاولاً دفعه إلى المثالية التى ينشدها.

❁❁❁

المبحث الخامس
أثر الاغتراب فى التشكيل الأسلوبى

١) استرفاد التراث
٢) المعجم الشعرى
٣) الصورة الشعرية

إن التشكيل الأسلوبي هو أداة الشاعر للتعبير عن تجربته الشعورية، « وإذا كانت دراسة الموقف فى شعر شاعر هى الوجه الأولى للعملة، فإن دراسة أدوات التشكيل هى وجهها الآخر فالعمل الإبداعي يتوسل بالأداء ليعكس كل ما يريد الفنان أن يعبر عنه، فنستطيع من خلال تفسير الأداة أن نتبين الإطار الإنسانى لتجربة الأديب... واستخدام الشاعر للغة مرتبط أساساً بالطريقة التى يعمل فيها خياله، وبالطريقة التى يتم بها وجود العمل الفنى، ولكن ليس معنى هذا أن الأديب سينشغل عن عملية الإبداع بترصد الأداة التى يراها مناسبة، إن الأمر أعقد من هذا ؛ لأن معنى القصيدة كان فى نفس الشاعر قبل أن يتشكل من خلال الأداة، ولهذا فإنه من الخطأ انفصال المعنى عن المبنى » [1] ولكن ما يجب أن تستدعيه الدراسة هو توضيح مدى توافق الشعور والرؤى مع الأداة دون إجبار أو إرغام على التوافق.

ومن هنا فإن توضيح أثر الاغتراب على التشكيل الأسلوبى هو توضيح لمدى ارتباط الشكل بالمضمون.

أولاً : **استرفاد التراث** :

كثيراً ما ينتاب الشاعر المعاصر نوع من الإحساس بالغربة فى هذا العالم، ناشئ عن شعوره بما يسود عالمنا الحديث من زين و تعقيد وتصنع، وبعد عن عفوية الحياة الأولى وتلقائيتها وبساطتها، فكان هذا الإحساس المزدوج بالغربة وبجفاف الحياة المعاصرة ونمطيتها وتعقيدها يدفعه إلى

(١) شعر صلاح عبد الصبور الغنائي –الموقف والأداة –د/ أحمد عبد الحى – ص ٢٣٥، ٢٣٦ بتصرف – الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٨٨م.

الهروب من هذا الواقع، ونشدان عالم آخر أكثر نضارة وبكارة، وأكثر سذاجة وعفوية فى نفس الوقت، فينشد هذا العالم بين أحضان التراث » [١]

فنلاحظ أثر التراث واضحاً فى التشكيل الأسلوبى لشاعرنا عبد اللطيف عبد الحليم، ونلاحظ أنه اختار شخصيات تاريخية عايشت أحداثاً مشابهة لأحداث عصره، ومن هذه الشخصيات : أبو حيان التوحيد وابن حزم، وأبو العلاء المعرى، والمتنبى، والمعتمد بن عباد، وموسى بن أبى الغسان، وغيرها من الشخصيات التاريخية التى كان لها أثرها فى المجتمع، وكان لها من الآراء والأفكار ما أحدث دوياً فى توجيه معاصريها.

شاعرنا يستدعى شخصية أبى حيان التوصيدى، وهو من الشخصيات المقربة إليه، فيستحضره أمامه يبث إليه شكواه، وما طرأ على عصره من نكبات مشابهة لما حدث فى عصر التوصيدى، فقد حل الضعف والهوان وأثقلت النفوس، وضاعت الهمم، فيقول فى قصيدته « رسالة إلى أبى حيان التوصيدى » [٢] :

معـذرة صـاحبى، إذا سـكنت — فينـا الـدواعى، وأبطـأ الرسـل
يـا صـاحبى التوحيـدى أسـألك — الغفـران، ضـاقت بـذنبنا الحيـل
أضـنت علينـا القـرون، واستنصـر — البغـاث فينـا، واسـتنوق الجمـل
معـذرة صـاحبى، إذا جمحـت — بـى الأمـانى، وشـدنى العـذل

(١) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر. د/ على عشرى زايد – ص ٤٢ بتصرف – ط ١٤١٧ – ١٩٩٧م.
(٢) زهرة النار – ص ٤٩، ٥٠.

نلاحظ أن شاعرنا يفتتح حديثه إلى التوحيدى بالاعتذار، وكأنه قد أخطأ في شيء ما، وكأنه قد قصر تجاه مجتمعه على الرغم من أنه يعانى ما عاناه صاحبه التوحيدى، ولكنه يلتفت بسرعة بعد هذا الاعتذار إلى مواجهة غامضة مع التوحيدى، فالتوحيدى مغترب مثله ووزراء البلاد استولوا عليها، فالاستيحاء العكسى فى مقدمة القصيدة يتبعه هذا الإسقاط السياسى يشيع فى القصيدة جواً من التوتر، ومضاعفة للصراع النفسى الذى يعترى الشاعر، ومكاشفة جلية للواقع المسيطر على المجتمع.

ويتابع شاعرنا هذه المكاشفة عن طريق حواره مع صاحبه التوصيدى، يقول [١] :

يا صاحبى التوحيدى، عصرك قد   نعيشـــه والظـــلال تنتقـــل
نحـرق فيــه الطـروس، تحرقنـا   وليتنـــا بـــالطروس نشـــتعل

فيصور الشاعر عن طريق استدعاء أحداث عصر التوحيدى سبباً من أسباب المأساة التى تغشى المجتمع، فإذا كانت الكتب قد أحرقت على سبيل الحقيقة فى عصر التوحيدى، فقد أحرقتها عقولنا فى العصر الحاضر، فهى عقول أبت العلم الحقيقى واستبدلته بالتزييف والخداع، حيث آثر كثير من أفراد المجتمع الراحة والدعة عن طلب العلم والعمل، فيصور الشاعر عقول مجتمعنا فيقول :

أصـــخت تلـــذ بالرقـــاد والألـــم   والضـــياع يغشـــى عروقهـــا الكســـل

ولكن يعاود شاعرنا ليجعل من شخصية التوحيدى مثالاً تاريخياً يحتذى، ولكنه المثال الذى يسعى شاعرنا إليه، بل ويبث أفكاره من خلال رمسه لشخصية التوحيدى الذى عرف لإصلاحها، فهو حين يسترفد هذه الشخصية التراثية التى عانت الاغتراب فى عصرها، يجعل منها ستاراً من الماضى

(١) أغانى العاشق الأندلسى (ديوان اللزوميات) ص ١٥٢.

تنعكس عليه صورة الحاضر، فنعيش تجربة الحاضر فى صورة الماضى، مما يضفى عليها أصالة وجدة وإيجابية.

وكما استرفد شاعرنا شخصية أبى حيان التوحيدى من التاريخ، ليسقط على عصره صورة الحاضر، استرفد الروح المعربة فى أكثر من موضع، والمعرى عانى كما يعانى شاعرنا الاغتراب عن مجتمعه، ولكنه آثر العزلة والتخلى عن المجتمع، وقد تكون عاهته هى السبب فى ذلك، بينما استطاع شاعرنا أن يثور على المجتمع، فهو فى انعزاله يتفكر ويتدبر بعيداً عن ضغوط الحياة، ولكنه رغم ذلك تغلب عليه الروح المعرية، ويظهر ذلك بوضوح فى قصيدته « سيان » وهى من لزوميات « أبى همام » فيقول :

أعـرفكم مهـلاً، فمـا غرنـى ... مـا أظهـر القلـب، ومـا قـد خبـأ
بسـمتكم كـالثلج خداعـة ... إذا علتـه الشـمس فـى المرتبـأ
صـحبتمونى زمنـاً، ليتنـى ... مـا كـان عنـدى مـن زمـان نبـأ
ثـم تـدابرنا، فمـا سـاءنى ... أن وداداً زائفـاً قـد صـبأ
غـدوت لا آسـى، ولا أرتجـى ... سـيان عنـدى مـن بنـأ أو عبـأ
ثـد وبئـت نفسـى مـن قـربكم ... عفـواً، إذا عفـت وخـيم الوبـأ

فتظهر لنا فى القصيدة روح معرية واضحة، حيث يلفها الشك فى الناس واستدبار الحياة، وحتى حباً يعكس كبرياء المعرى، مع أن الحب خضوع وفناء، وأخذ وعطاء متبادلان، ولكن دنيا الشعراء تحفل بكل متناقض عجيب.

وهو حين يستنطق ابن حزم فى قصيدته « من آخر كلمات ابن حزم » لا يبعد كثيراً عن المعرى، وشاعرنا يقول رأيه فى الحياة وفى زمننا على لسان ابن حزم، وهو من الشخصيات المشهورة فى التاريخ، فقد كان متعالياً عن الحياة وسفاسفها، ومن دنوا من بنيها، ولكنه كان إيجابياً عنيفاً مندفعاً، لم يقعد

عن النضال السياسى أو العلمى، ولم يجعل الدنيا فى أى جانب منها مطمحاً له، ومضى يقاتل الفساد والمفسدين بالسيف، وفى ساحة الحرب، وبين كواليس السياسة، فلما طم شرها، ووهن منه الجسم اتخذ طريقاً آخر، فحارب التقليد والنفاق وكشف زيف الخونه، ومضى يحاور ويجادل، ويؤلف ويبنى جيلاً من الطلاب، يواصل الرسالة، لكن طوفان البلاء كان أقوى منه، فانسحب إلى قريته محبطاً ممروراً لكنه لم يستسلم ولم يهن أبداً. (١)

وقد استرفد شاعرنا شخصية ابن حزم من التراث، واسقط عليه جانباً من شخصيته وتجربته فى الحياة، فهو يعانى مثله الإحساس بالغربة والإحباط والخذلان ممن حوله، ويأسى على ما آل إليه حالهم، فهو يتحدث من خلال هذه الشخصية عن أحوال المجتمع، وعبر عن تجربته مع المجتمع من خلال صرخة ابن حزم فى وجه العدوان والظلم يستنفر بها الروح العربية لا جتياز المحنة التى تمر بها، وقد سمى القصيدة « من آخر كلمات ابن حزم » لأنه انعزل فى آخر حياته وأصابته حالة إحباط، مما أصاب المجتمع، وها هو شاعرنا يعبر عن ذلك بقوله (٢) :

غادرتكم، لا تروق صحبتكم — غمامكم راعد، ولا مطر
وبأسكم بينكم، وشانئكم — يحكم فيكم، وشأنه البطر
كل خصي تدعونه ملكاً — وماله همة، ولا خطر
سيان « نغريلة » ومقتدر — كلهم بالأعاجم أنأطروا
تهودت – بالذل – قرطبة — فليهنأ الروم، حقق الوطر

---

(١) شعراء ما بعد الديوان – ص ٢٣٤، ٢٣٥ بتصرف.

(٢) من أغانى العاشق الأندلسى » ديوان اللزوميات » ص ١٥٥ – ١٥٦.

فقد استدعى شاعرنا المناخ القديم الذى عاشت فيه الأندلس فى عهد ابن حزم، وأسقطه على الواقع المعاصر، ورسم بدقة معاناة ابن حزم وشعوره بالاغتراب فى مجتمعه، فقد يساوى العربى واليهودى، وكلاهما يستجدى الأعاجم، فيمنح اليهودى، ويمنع العربى، والنغريلة رمز لليهود، واستحكم الضعفاء والخصيان، وضعفت حيلة العربى، واستسلم الشعب للذل، واليوم ماذا نرى، لقد سيطر اليهود على فلسطين وأحكمت الصهيونية قبضتها على أرض القدس العريقة، وحرم العرب من وطنهم، ولا حيلة إزاء ذلك، فيقتل أباؤنا أمام أعيننا ولا حيلة لنا سوى البكاء والعويل، ولا فتات تعلق، فكما حدث فى بلاد الأندلس قديماً يحدث الآن، وها هو ذا شاعرنا يعبر عن موقف العرب على لسان بن حزم فيقول (١) :

والأمويـــون غـــال نخـــوتهم أنهـــم بالمهانـــة انشـــطروا
يســـطِّرون الأحكـــام نافـــذة وبـــئس مـــا نفـــذوا ومـــا ســـطروا
فى « منت لشم» ألفت معتزلى غمـــامكم راعـــد ولا مطـــر

فافترق الأمويون وانشطروا إلى طوائف ودويلات، فضعفت شوكتهم، والشعب مستسلم يشوبه الخوف والخذلان، فاعتزلهم بن حزم فغمامهم رعد وليس له مطر.

فشاعرنا أسقط رؤيته على الواقع المعاصر وكشف عن دوافع اغترابه من خلال استدعائه هذه التجربة التراثية المتمثلة فى اغتراب ابن حزم واعتزاله بعد ما عاناه من المجتمع المحيط به.

---

(١) السابق ص ١٥٦.

المعجم الشعرى :

إن المعجم الشعرى هو : « ذلك الرصيد الضخم من الألفاظ التى يستخدمها الشعراء كل فى غرضه ومقصد » [١] ويتأثر هذا الرصيد الضخم تنوعاً وكثافة تبعاً لثقافة الشاعر، وبيئه، وملابسات عصره.

وعصرنا الحديث حافل بالأحداث والمتناقضات التى كان لها تأثير فعال على شعرائنا على اختلاف مدارسهم ومذاهبهم الأدبية.

وقد عاصر شاعرنا عبد اللطيف عبد الحليم العديد من النقاد والأدباء، وكانت له قراءات كثيرة فى كتب التراث، كما كانت له مطالعات متعددة فى الكتب الأدبية والنقدية الحديثة، وقد أثقلت دراسته فى دار العلوم معجمه اللغوى برصيد ضخم من الألفاظ العربية الأصلية، « فهو صاحب معجم شعرى متميز، برئا ألفاظه من الشيوع والركاكة والسوقية، وتسمو فى جانب منها على فهم بعض القارئين، حتى أنصاف المثقفين » [٢]

فوسيلة شاعرنا هى الكلمة الساحرة التى ينفذ إليها عبر ثقافة عربية واسعة، يلتقطها بحساسية خاصة، باحثاً – ككل الشعراء – عن الجدة والتفرد، إنه يقتنص مفرداته، وقد يعز على البعض إدراك دلالة بعض منها، ولكنه فى ذلك غير متكلف ولا متصنع، إنها ثقافته الخاصة، حتى كانت لغته كذلك فى شعره »[٣] فألفاظه رموز لملابسات شتى متشابكة فيما وراء الوعى، وذات دلالة كامنه فيه لدواع تتصل بالشاعر نفسه، أو تقتضيها طبيعة الألفاظ نفسها أحياناً أخرى، وبقدر ما تكون طاقة الشاعر النفسية يجئ استخدامه لهذه

(١) انظر مدرسة أبوللو الشعرية فى ضوء النقد الحديث – د/ محمد سعد فشوان –ص ١١١– ط دار المعارف – ١٩٨٢م.

(٢) شعراء ما بعد الديوان – ح٤ مقال د/ الطاهر مكى – ص ١٦٩.

(٣) المرجع السابق – (دراسة لـ د/ محمود العشيرى – ص ٣٢٤)

الألفاظ، واستيحاء رموزها، واستدعاؤها فى اللحظة المناسبة فى غيبة من الوعى دائماً » [١]

فمعجمه الشعرى غنى بأصالة التراث وجدة الحديثة، فهو يعبق من التراث حتى الثمالة، تعينه ثقافته الشعرية، وموهبته الفطرية، وتطفو لغة المحدثين لتكسب أبياته عفوية ورقة، ويتنوع استخدامه لكل طائفة استجابة لمقتضيات التجربة الشعورية التى مربها، فقد يزاوج بين نور الأصالة وشعاع التراث من جانب ومرادفات المحدثين من جانب آخر، وهو فى كلٍ ذا تفرد عجيب فى تنسيق مفرداته وإبداعها، وقد ينتظم النص لغة واحدة فقط تسرى بين أعطافه، وتحدد دلالاته وإيحاءاته.

ولنتناول قصيدته « ماريسا عباد » والتى أبدعها فى الأندلس، التى عاش فيها أكثر من خمس سنوات، تجسدت من خلالها بعض أحلامه القديمة، وامتزج فيها عبق الماضى وحداثة الحاضر، يستشعر عراقة التراث العربى الأصيل بين مدنها، ولكن حلم اليقظة ينتهى عندما يسمع صوت أسبانى يشدو و يترنم بالنثر فيقول : [٢]

روضـــتك الزهـــراء أســـطورة أقـــرأ فيهـــا كـــل هـــذا الجمـــال
محروسة بالعطر، والزنبق الغض وأحـــــداق الســـــنا والظـــــلال
حـــدائق الضـــوء علـــى ســـورها مســـحورة، ضـــل لـــديها الخيـــال

❁❁❁

أرود فـــى « قرطبـــة» ســـرَّك مـــا بـــين طيـــوف الجـــلال
تشـدنى « حمـص» إلـى لحنهـا رائحـــة الخمـــرة، طعـــم الوصـــال

(١) المرجع السابق – ص ٣٢٤.
(٢) ديوان أغانى العاشق الأندلس – ص ٢٣.

أجمع فى « جيان » زيتونها تفاحها، أمد كفَّ السؤال
أصحو على أغنية الشاعر الجوال، ياقسية، كالنَّصال

« عشقتنى ثلاث مسلمات
فى جيان
عائشة وفاطمة ومريم
ذهين يجمعن الزيتون
فوجدنه قد جمع
فى جيان
عائشة وفاطمة ومريم
ثلاث مسلمات فياضات بالنضارة
ذهبن يجمعن التفاح
فوجدنه قد جمع
فى جيان
عائشة وفاطمة ومريم
قلت لهن من أنتن يا فتيات
وقد سلبتن حياتى ؟
قلن : مسيحيات، وكنا مسلمات
فى جيان
عائشة وفاطمة ومريم

وتتجلى براعة الشاعر فى دقة اختياره للألفاظ وتناسقها تعبيراً عن الموقف معنوياً ولغوياً، فحديث الشاعر يفيض بالحنين والحرمان « طالت بأحلامى الليالى الطوال » وحديث الأسبانى الجوال غناء مشرق يفيض بالعفوية والزهو « عشقتنى ثلاث مسلمات» وحديث العربى منظوم بلغته مقضى، وحديث الأسبانى مترجم منثور.

ويرى أ. أحمد عبد المعطى حجازى أن هذا الحل لا يتوافر للشاعر فى كثير من قصائده، فهو معلق بين الوقتين، يحن للماضى ولا يطيق أن يسجن نفسه فيه، ويضيق بالحاضر ولا يستمدها فى بعض قصائده من لغة القدماء، ويستمدها فى البعض الآخر من لغة المحدثين » (١)

ولكن بتراءى لى أن هذا ليس تمزقاً لغوياً، وإنما اللغة انعكاس لمشاعر مبدعها، بل وصورة للتجربة تنعكس عليها معاناة الشاعر « ويمكن لنا مع شئ من الثقة أن نعتبر شكل اللغة هو المحدد لأدبية النص وشاعريته، ومن عناصر اللغة الكلمة التى تستخدم بطاقاتها الانفعالية والتصويرية والإيقاعية، حيث تكثف الأنفعال والشعور إزاء الموقف، وتمسك طاقته الخيالية بأطياف الإحساس قبل أن يتلاشى ويذوب فى مسارب الحياة، والشاعر يعتمد على إثارة دلالات انفعالية الا مركزية) تتوهج بها المفردات، وهى سمة تشارك فى تفرد بصمته اعتماداً على رفاهة عزفه على محور الاختيار » (٢)

ومن هنا كانت الألفاظ هى صورة للخيال الشعرى، تتجسم من خلالها عاطفته، وتنعكس رؤاه وتتبلور تجربته الشعورية، ولذلك انعكس شعوره بالاغتراب على اختياره للألفاظ المعبرة عن معاناته، والتى توحى بالتفرد والعزلة والانفصال، فكانت كلمات الوحدة، والغربة، والعزلة، والتفرد، والخداع، واليأس

(١) انظر شعراء بعد الديوان – مقال أحمد عبد المعطى حجازى – ص ٢١٣.
(٢) السابق ص ٣٢٣.

» وما يوحى بمعناها من الألفاظ بها يحفل بها معجمه الشعرى، وإشارتى هنا إلى هذه المفردات ليس توجهاً لانفصالها عن العبارة، بل اللفظة المفردة تتنوع كثافتها تبعاً للعبارة التى تحتويها، وتتفاوت طاقتها التصويرية، فى إطار المشاركة التصويرية والتعبيرية التى تنبعث من موقعها بين تراكيب متنوعة، وتتأثر كل كلمة بما قبلها وما بعدها وطبيعة جرسها وإيحاءها.

❁❁❁

وإذا تأملنا ألفاظه التى أثقلت معجمه الشعرى، نلمح نغمة الحزن والألم والميل إلى الوحدة والتفرد تسرى بين أعطاف شعره، فيقول فى قصيدة « الوحدة المأنوسة » (١) :

لا أرانى، وإن تفردت فى الدنيا وحيـــداً، وعفـــت دنيـــا الأنـــام
لـى هـم يصـافح الأنجـم الزهـر ويصــــطاد ســـانحات الظـــلام
ويضـــم الحيـــاة صـــافية النـــور ويمتـــد فـــى شـــعاب الحمـــام
ويهـز الفـانين فـى غيهـب القبـر فيحيـــون بعـــد طـــول منـــام
ويهـــز الآبـــاد مســـافرة الوجـــه ويمـــتص شـــوقها المترامـــى
أتملـى الوجـوه فـى قبضـة الله جديـــــداً تجقابــــه أنغـــــامى
وحـــدتى لا عـــدمتها – يجهـــل النـاس مـداها – أنـس بغيـر زحـام

فألفاظ القصيدة تعبر عن زهد الشاعر فى الحياة، وشعوره بالغربة وميله إلى الوحدة والتفرد، وكشف عن ذلك بقوله « لا أراني » وهى توحى بالرؤية الذاتية، يعقبها لفظى « تفردت، وحيداً » وهى توحى برغبة جامحة فى الانفراد بالذات والبعد عن مشاركة المجتمع فى غياهب دنياه، وإصرار حقيقى يدفع

(١) أغاني العاشق الأندلسي – (ديوان لزوميات وقصائد أخرى) ص ٨٤، ٨٥

النفس إلى وحدة لا يعلم مدى استمتاعه بها سواه، ويظهر مدى تمسكه بها «وحدتى » لا « عدمتها » بينما « يجهل الناس مداها » ويحدد أبعادها أنس بغير زحام.

كما يتراءى لنا فى معجمه الشعرى الألفاظ التى توحى بالحنين إلى الوطن، وتثير لواعج الأسى على الفراق فى إطار من صدق الإحساس والشعور فيقول [1] (أثناء إقامته فى أسبانيا) :

إيه مدريد، وقد غال الأسى ... فيَّ قلباً دامياً مغتربا
تجلد الوحشة إحساسى، ولا ... أنشد السلوان إلا عذبا
كلما قلت : تدانى كوكب ... تحجب الظلمة عنى كوكبا
وإذا قلت سقانى مورد ... زادنى مما ألاقى سغبا
إيه إسبانيا، وهل كنت سوى ... شهقة النـاى الذى ما احتجبا
وبقايا من حنين، ورؤى ... زادها العمر حياة وصبا
عاشق النيل – وفى الأندلس ... بك عشق لم يزل ملتهبا

فلاحظ أن ألفاظ " غال – الأسى – دامياً – مغترباً – تجلد الوحشة – السلوان – تحجب – الظلمة – سغبا – حنين " تذكى إحساس الشاعر بالغربة فى أسبانيا، ولمحة الحزن لفراق الوطن تسرى إلى القارئ عند قوله " إيه مدريد " فلفظة " إيه " بدلالتها على عمق الحزن والتأسى، ودلالتها الصوتية العميقة، وإضافتها إلى كلمة مدريد توحى بغربة حسية دعائمها الإحساس بالفراق والحيرة والحزن فقد " غال الأسى " وصار القلب " دامياً مغترباً " لا يرويه مورد إلا ولاقى " سغبا "، لا يرتوى إلا بماء " النيل " ليطفئ لهب نار عشق " لم يزل ملتهبا "، فنلاحظ تعانق الألفاظ وتجاوبها مع عاطفة الشاعر ؛ لتشكل خياله

(١) أغانى العاشق الأندلسى – (ديوان لزوميات وقصائد أخرى) ص ١٠٣

الشعرى فى لغة موحية، فالشاعر يعزف على وتر الحنين وعاطفة الانتماء إلى الوطن، ويعبر عن شعوره بالاغتراب، وانعكاس ذلك على رؤيته للحياة، وهى رؤية يحفها شوق وحنين إلى الوطن، ورغبة عارمة فى العودة إليه.

ومن هنا نلاحظ أن المعجم الشعرى لا ينفصل عن شعور المبدع وخياله، فهو طيف العاطفة وصنو الإحساس والشعور، ولذلك انعكس شعور أبى همام بالاغتراب على لفته، فجاءت معبرة عن اغترابه عن مجتمعه، وتشكل رؤيته لحياته وعلائقه واندفاعه إلى العزلة.

وسوف نرى أن الشعور بالاغتراب كان له أثر على تكوين الصورة الشعرية، فالمعجم الشعرى لا ينفصل عن الصورة، فكلاهما تعبر عن رغبات الشاعر وإحساسه وميوله وأفكاره، فلا تنفصل أجزاء التعبير، بل كل منها يكمل الآخر ويدعمه.

❁❁❁

الصورة الشعرية :

« إن الصورة مقوم أساسى من مقومات الشعر، بل هى التى تمنح الشعر كثيراً من خصائصه مثل التركيز والتكثيف، كما تمنحه أسباب خصوصيته كنوع أدبى يتميز عن سائر الفنون التى تتخذ من الكلمة أداة لها، ذلك يتميز عن سائر الفنون التى تتخذ من الكلمة أداة لها، ذلك أن الشعر هو أقدر هذه الفنون على تفجير طاقات اللغة، واستثمار إمكاناتها المختلفة (١) ، فهى « أثر الشاعر المغلق الذى يصف المرئيات وصفاً يجعل قارئ شعره ما يدرى أيقرأ قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود، والذى يصف الوجدانيات وصفاً يخيل للقارئ أنه يناجى نفسه ويحاور ضميره، لا أنه يقرأ قطعة مختارة لشاعر مجيد » (٢)

والصورة الشعرية بتعبير آخر هى : « الشكل الفنى الذى تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بيانى خاص ؛ ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة فى القصيدة، مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها فى الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاوز والترادف والتضاد، والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفنى » (٣)

وعلى الرغم من ظهور التأثير التراثى على الإبداع الشعرى لشاعر عبد اللطيف عبد الحليم، إلا أن لشاعرنا رؤيته الخاصة فى إبداع صورة، فقد

---

(١) الاتجاه الوجدانى فى الشعراء العربى المعاصر – د/ عبد القادر القط – ص ٤٣٥ – ط دار الشباب – ١٩٧٨م.

(٢) شعر صلاح عبد الصبور الغنائى (الموقف والأداة) د/ أحمد عبد الحى ص ٢٧٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٨م –

(٣) حسن كامل الصيرفى وتيارات التجديد فى شعره – د/ محمد سعد فشوان ط الأولى – ص ٢٤٣.

يستعين بألفاظ عربية قديمة فى تكوين الصورة، ولكن التشكيل حديث، يعبر عن رؤية للموقف رؤية عميقة فى الشكل والمضمون، وهو فى صورة يبعد عن الهلامية والسطحية، ويميل إلى رسم الصورة بإبراز خطوطها وعناصرها وألوانها وظلالها، ولها من الحياة حركتها وحيويتها، ومن رومانسيته تشكيلها الذى يتنوع بين الصورة الرمزية، والدرامية، وتراسل الحواس، وغيرها... كما عمد إلى الثنائيات الضدية، وإبراز المفارقة التصويرية التى أثرت صورة وأكسبتها أصالة وجدة، ولكن ثقافة الشاعر العربية تبرز فى استخدامه ألفاظاً عربية أصيلة تتخلل صورة فى كثير من الأحيان ؛ وبعض هذه الألفاظ مستوحاه من الشعر الجاهلى ؛ لأن « للشعر الجاهلى سلطان عجيب على الشعر العربى القديم والحديث » (١)

ولأن الصورة الشعرية هى صنو العاطفة، فقد انعكست عليها مشاعره، وتوج من خلالها رؤيته للحياة والموجودات، فتمتزج هذه الرؤى فى نفسه لتصور حواراً داخلياً بين أعطاف المرئيات لترفى إلى روحانية وشفافية، يجسم من خلالها المعنويات، ويكشف عن أسرار قلبه، عازفاً على وتر العاطفة.... ولا يخفى أن الشعور بالحنين والخوف والقلق من المشاعر المسيطرة على شاعرنا فى كثير من قصائده التى عبر من خلالها عن اغترابه المادى والحسى، وقد عبر عن شعوره بالحنين إلى وطنه فى قصيدته « مالقة » فيقول (٢) :

إسكندرية أنسام الهوى، اقترنت بخفقة الموج، فى سرَّى، وفى علنى
وسافر الطرف، فى ريشات نَوْرَسَةٍ قضية النغم المحبوس من زمن
وعند شطك هاجت كل هاجعة لما ترامت بأشطان النوى سفنى
أذوب عندك تاريخاً، وعاصفة وتشرب الأفق عينى، والهوى أذنى

(١) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر – د/ عبد القادر القط – ص ٤٣٦–
(٢) أغانى العاشق الأندلس – ص ٢٥.

أظل كالشمس ذابت فى مياهك وقت الصيل فأدمت دامى الشجن
أعود، أبحث فى ماضىّ فى ملقا فى إسكندرية دارى، قصتى وطنى

تكشف هذه القصيدة التى تتزاحم فيها الصور البصرية والسمعية عن عاطفة الحنين إلى الوطن من خلال صور نابضة بخفق التراث وحيوية التشكيل الحديث، فقد عمد الشاعر إلى الصور الجزئية التى تعتمد على علاقة المشابهة، فالإسكندرية أنسام الهوى تقترن بخفقة الموج، والطرف ينطلق بين أعطاف نورسة، والشاعر كالشمس يذوب مياهها وقت الأصيل، فهذه الصور الجزئية تصور إحساس الشاعر بقوة، وتكون صورة كلية تتسم بدفء العاطفة ورحابة التصوير من خلال امتزاج عاطفة الحنين والشعور بالاغتراب ببعض عناصر الطبيعة حتى أصخت جزءاً لا يتجزأ من كيانه النفسى يقترن بها ويذوب معها.

وفى قصيدة « ليلة سقطت غرناطة » يستدعى شاعرنا صوراً من الماضى، وهى صور واقعية أسقطها على الواقع المعاصر، تكشف عن روح السخرية بما آل إليه حال المسلمين من تفرق وتشتت، يقول : [1]

وجهك بين الوجوه ينتفض البأس به والعبوس، والخطر
والنيل والحزن والجسارة والموت زؤاماً، والريح، والمطر
تصهل فيه الخيول عاصفة تهز فيه الرعود، والشرر
يقول : لا للعويل، للأسف المكلوم، لا، للدموع تنهمر
وهم حواليه زمرة، ولقى ليس بهم من نبالة أثر

(١) أغانى العاشق الأندلس – ص ٥٢، ٥٣.

شـــوفهم للحيـــاة خانعـــة	حجوا إليها « بالأمن » واعتمروا
تجمـــدت بالـــدماء أوردة	يحرســها فــى أمانهــا الخــور
ســباعهم، تلفــظ الميــاه ولا	نــاب لهــم كالســباع أو ظُفُــر
مــن صــور رافــت العيــون، ومــا	ينبضــها الاحتــدام والســهر
ســيوفهم مــن نعومــة برقــت	ومــا بهــا حــدة، ولا أشــر

فهى صورة رمزية تشير إلى الواقع المعاصر،وقد استمد الشاعر رموزه من التراث، فقد اتخذ من شخصيته « موسى بن أبى عشان » [1] زكيزة أساسية تدور حولها الأحداث، فهو البطل المغوار الذى تصدى للفرنجة، ودافع عن شرف الإسلام والمسلمين، ومن حوله هم الخونة والمتخاذلين ممن تمسكوا بترف الحياة... فالبطل ينطلق فى ميدان المعركة لا يبالى منتفضاً بالقوة والعزيمة يدفعه النبل والجسارة، والحزن على ما آل إليه حال البلاد مندفعاً إلى الموت لا يهابه، والخيول تصهل من حوله، وتحيط به الريح، والمطر، وكان الطبيعة تتجاوب وتتفاعل مع مشاعره وحوله شعب وقواد قد هانت عندهم بلادهم وتمسكوا بحياتهم، وتركوه وحده فى ميدان القتال... فهذه صورة كلية رمزية أسقطها الشاعر على واقعة المعاصر، وكشفت عن معاناته وشعوره بالغربة فى مجتمع مال إلى الخنوع والاستسلام، وقد عالج فى هذه الصورة دلالة الموقف، وعمق الرؤية التى تكشف عن الذات، فأبو موسى مغترب فى عصره ومجتمعه، فهو متفرد فى ذاته، لم يسر مع الركب بل انفصل عنه لتباعد ما بين هدفه وأهداف مجتمعه، فهو مترفع عن الدموع والعويل، والمجتمع يعيش الذل والهوان، مستجيباً بتخاذل.

(١) بطل غوناطى رفض تسليم غرناطة وقاتل وحده حتى قتل، ولم يعثر إلا على حصانه، واختلط تاريخه بالأسطورة.

وهنا تتضح المفارقة، فبينما البطل يضحى بحياته وأمانة، إذا بشعبه سيوفه ناعمة استلذت الأمن والهوان، ومن شأن هذه المفارقة أن تبرز الرمز فى إطار التجربة المعاصرة، وانفعال الشاعر بها، وتجسيد رؤيته للواقع المعاصر.

وهكذا كانت الصورة الشعرية أسلوباً إبداعياً، عبر الشاعر من خلالها عن معاناته واغترابه داخل مجتمعه، كاشفاً عن عزلته وانفصاله عن توجهات مجتمعه مستعيناً بالرمز والتراث.

❁❁❁

الخاتمة

كانت هذه الدراسة بعنوان « الاغتراب فى « شعر عبد اللطيف عبد الحليم » أبو همام » الرؤية، والأداة ولأن الشعر انعكاس لرؤية الشاعر، والرؤية الإبداعية انعكاس للمجتمع، فقد تناولت المؤثرات والدوافع السياسية والاجتماعية والنفسية التى دفعته للاغتراب، وبالتالى ظهوره فى أعماله الإبداعية، وانعكاسه على تشكيله الأسلوبي.

وقد انتهيت إلي هذه النتائج :

١- عبر الشاعر عن اغترابه بنوعية المادى والحسى من خلال شعره وكان اغترابه فى وطنه، وما عناه من مشاعر الخوف والقلق والاضطراب أشد وطأة عليه وأقوى أثراً، فقد تمكن من تجاوز الاغتراب المادى مع ما عاناه من قلق واضطراب أما الاغتراب الحسى خاصة داخل الوطن، فإنه يصل بالإنسان إلى مرحلة يتمنى فيها الفناء للتخلص من مشاعر الألم والحزن التى مغتربة، ومن ثم كان شعره تعبيراً عن صراعه الداخلى بين الواقع والمثال فشعر بالحيرة والقلق والإحباط فى عالم افتقد فيه حريته.

٢- من دلائل الاغتراب عند الشاعر عبد اللطيف عبد الحليم دلالية العزلة وقد كانت نتيجة لاصطدامه بالواقع المتمثل فى المجتمع بظروفه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والتى لا تتفق مع مبادئه وروحه الشاعرية الراقية، بالإضافة إلى عدم القدرة على الاندماج النفسى والفكر، مما دفعه إلى عزلة اغترابية، وقد كانت الثقافة المشوهة، وتضارب الآراء والأفكار يدفعه إلى شعور بالتوتر والقلق فيؤثر العزلة، التى صرح بها أحياناً فى شعره، فكانت الوحدة المأنوسة كما أطلق عليه محببة إلى نفسه.

٣- كانت عزلة الشاعر واغترابه هى أولى خطواته للرؤية الصحيحة للمجتمع ؛ لأنه كان بعيداً عن ضغوط الحياة وويلاتها، وهذه من النتائج

الإيجابية للاغتراب، حيث يصل المبدع إلى هذه المرحلة بعد فترة ينعزل فيها إلى نفسه فيعيها ويعرفها حق المعرفة، ثم يتجه إلى المجتمع بروح ثابتة متجددة، لديها قدرة على بمحاولة التغيير، واثبات الوجود.

٤- أكدت الدراسة أن الثقافة المشوهة والتخلف الحضارى من العوامل التى دفعته للاغتراب.

٥- إن رحلة الشاعر إلى أسبانيا كانت ذات تأثير واضح فى إبراز ظاهرة الاغتراب فى شعره، فقد حاول مغالبة شعوره بالغربة فى العالم الأسباني ؛ لتعلقه الواهم بالماضى العربى، ومعايشته له، ولكنه لم يلبث أن اكتشف عالمه الحقيقى، فعمق شعوره الكثيف بالاغتراب.

٦- كانت ثورة الشاعر على المجتمع أثراً من آثار عزلته الاغترابية فى محاولة لتغيير واقعه.

٧- إن الشعور بالاغتراب، وانعكاسه على العمل الإبداعي له تأثير على التشكيل الأسلوبي، ومن ثم ظهر هذا التأثير فى استرفاد التراث حيث كان تراثنا العربى بما من أبطال وشعراء هو العالم الحقيقى الذى يلجأ إليه شاعرنا، فاسترفد كثيراً من شخصياته وأحداثه إما لتكون قناعاً يبث من خلاله آراءه فى الحياة، أو ليستقى من أحداثه، لتكون نموذجاً يحتدى فى واقعه المعاصر.

٨- كان لظاهرة الاغتراب تأثير على معجمه الشعرى، حيث أن الألفاظ هى صورة لخياله الشعرى، تتحسم من خلالها عاطفته وتنعكس رؤاه، ولذلك كان اختياره للألفاظ المعبرة عن معاناته، والتى توحى بالعزلة والتفرد والانفصال والوحدة وغيرها وقد تفاوت وقح هذه الألفاظ تبعاً لسياقها التعبيرى.

٩- جسد شاعرنا شعوره بالاغتراب من خلال صورة الشعرية، فهى صنو العاطفة، فانعكست عليها مشاعره، وتوج من خلالها رؤيته للكون والحياة والموجودات.

المصادر والمراجع :

- **الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر** – د/ عبد القادر القط ط دار الشباب – ١٩٧٨م.
- **الإرشادات الإلهية –** أبو حيان التوصيدى – تحقيق عبد الرحمن بدوى القاهرة – ط ١٩٥٠.
- **استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر** – د/ على عشرى زايد – ط ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.
- **الاغتراب فى الدراما المصرية المعاصرة (بين النظرية والتطبيق) –** أ. حسن سعد السيد – ط الهيئة المصرية العامة للكتابة – ١٩٨٦م.
- **الاغتراب** – د/ محمود رجب – دار المعارف – ط الثانية ١٩٨٦م.
- « **حسن كامل الصيرفى » وتيارات التجديد فى شعر** – د/ محمد سعد فشوان ط الأولى – ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.
- **ديوان أبى تمام** – ح٢ – دار الثقافة .
- **ديوان أغنى العاشق الأندلسي (مجلس يضم الدواوين الآتية : أغاني العاشق الأندلسي – ديوان لزوميات وقصائد أخرى – هدير الصمت)** د/ عبد اللطيف عبد الحليم – الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠١.
- **ديوان بشر بن أبى خازم** – تحقيق د / عزة حسن – ط دمشق ١٩٦٠م
- **ديوان زهرة النار (مجلد يضم الدواوين الآتية : زهرة النار – الخوف من المطر – المنسرح)** د / عبد اللطيف عبد الحليم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٥ م).
- **سمات الحداثة فى الشعر العربى المعاصر –** د / حسن فتح الباب – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ٢٠٠٧ م.

- **شعراء ما بعد الديوان** – د / عبد اللطيف عبد الحليم – مكتبة النهضة المصرية – ٩٩٤م.
- **الرؤيا الإبداعية فى شعر صلاح عبد الصبور** – أ. محمد الفارسى الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٤ م.
- **مدرسة أبو للو الشعرية فى ضوء النقد الحديث** – د / محمد سعد فشوان – دار المعارف – ١٩٨٢ م.
- **من أزاهير الرياض (أحاديث من الأدب والنقد)** د / السيد إبراهيم ط ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م – الرياض.
- **النص الأدبي فى العصر الحديث بين الحداثة والتقليد** – د / عبد الرحمن عبد الحميد على – دار الكتاب الحديث ط ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

ثالثاً : **الدوريات** :

- **مجلة فصول (مجلة النقد الأدبى)** عدد ديسمبر – ١٩٨٣ م .
- **مجلة فصول (مجلة النقد الأدبى)** – المجلد الثالث – العدد الأول (أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر) – ١٩٩٨ م.

❁❁❁

فهرس موضوعات

الموضــــــــــــوع	الصفحة
التقديم	٤٥٥
تمهيد	٤٥٧
المبحث الأول : حول مفهوم الاغتراب	٤٦٨
المبحث الثانى : بواعث الاغتراب فى شعر أبى همام	٤٧٤
المبحث الثالث : دلائل الاغتراب فى شعر أبى همام	٤٨٤
المبحـث الرابـع : مراحـل الاغـتراب فـى حيـاة الشـاعر وانعكاساتها فى شعره	٤٩٣
المبحث الخامس أثر الاغتراب فى التشكيل الأسلوبى	٥١٤
أولاً : استرفاد التراث	٥١٥
ثانياً : المعجم الشعرى	٥٢١
ثالثاً : الصورة الشعرية	٥٢٨
الخاتمة	٥٣٣
المصادر والمراجع	٥٣٥
فهرس الموضوعات	٥٣٧